

ديودور الصقلي في مصر

القرن الأول قبل الميلاد

نقله من اليونانية
وهيب كامل



دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

تصميم الغلاف: محمد عطية



الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

ديودور الصقلي

لم يهمل التاريخ مؤرخا كما أهمل ديودور.. ألف ديودور الصقلي كتابا في تاريخ العالم أو التاريخ العام على حد تعبيره، منذ فجر التاريخ إلى الحملة التي سار بها يوليوس قيصر على بلاد الغال سنة ٥٨ ق.م. وسماه «خزانة التاريخ». وهي مصدرنا الفرد في استقصاء أخباره وتعرف شخصيته، والوقوف على منازعه وآماله، فقد خلا الأدب القديم من ذكره اللهم إلا النبذة اليسيرة التي أثبتتها القديس جيروم في القرن الرابع بعد الميلاد. إذ قال في حوادث عام ٤٨ ق.م. «ديودور الصقلي مؤرخ يوناني أصبح مشهورا» ولعل من الحكمة أن نقف عند هذا التاريخ باعتباره السنة التي ظهر فيها أول جزء من كتاب ديودور فاشتهر به.

مسقط رأسه مدينة آجريوم من أعمال صقلية، وهي إحدى المدن القديمة في داخل الجزيرة. وقد زارها هرقل كما قال ديودور [٤١و٤] وانتشرت فيها عبادته انتشارا لا يضارعه إلا انتشار عبادة الآلهة الأوليمبية.. ويتحقق لدينا قوله إن آجريوم مسقط رأسه من احتفاله بتاريخ هذه المدينة الصغيرة وحرصه على إيراد ما مر بها من حوادث بالتفصيل في «خزنته».

ولقد عفا التاريخ على آثار هذه المدينة، ولكن شاءت الأقدار أن تبقى منها على حجرين اثنين، نقش على أحدهما اسم ديودور بن أبيلونيوس، فهل كان ذلك الحجر شاهدا على قبر المؤرخ؟
 أين حصل ديودور العلم وعلى من من الأساتذة؟ وكيف اتجه إلى دراسة التاريخ؟ كل هذه أسئلة لا نحير لها جوابا. ولكننا نعلم على وجه التحقيق أنه كان يجمع مادة «خزانتة» في الأولمبياد الثمانين بعد المائة أى فيما بين عام ٦٠ وعام ٥٦ ق.م. وفي هذه الأثناء زار مصر ليصف آثارها ويقف على شيء من تاريخها.

يقول ديودور إنه رأى بعينه أثناء إقامته في مصر الشعب ثائرا يطالب بموت أحد أعضاء الوفد الروماني في مصر لأنه قتل هرة، هذا بالرغم مما كان يستشعره المصريون نحو روما من خوف، وبالرغم من أن بطليموس ملك البلاد لم يكن قد دعى بعد «صديق روما».

ومن المعروف أن بطليموس الحادى عشر قد اعتلى عرش البلاد سنة ٨٠ ق.م. وأنه ظل زهاء عشرين عاما مزعزع العرش لأن روما سيدة العالم حينئذ كانت مترددة فى الاعتراف به ملكا للبلاد، ولكن فى عام ٥٩ ق.م. اعترفت به روما ملكا بفضل المجهودات السياسية التى بذلها كل من قيصر وبومبيوس، ولكن ليس فى مصادر التاريخ الرومانى أية إشارة إلى ذلك الوفد الذى رأى ديودور أحد أعضائه يثير هذا الشغب الذى أودى بحياته أو كاد.

فإذا رجعنا إلى المؤرخ سيوتونيوس فى ترجمته لحياة قيصر، رأيناه يقرر أن قيصرا قبض من بطليموس هذا مبلغ ستة آلاف طالنت

أو ما يعادل نصف دخل البلاد فى عام، لىضمن له اعتراف روما بشرعية ولايته للبلاد، فمن المعقول إذن أن يكون الأمر قد اقتضى إيفاد بعثة سياسية لدرس حالة البلاد، تمهيدا للاعتراف بالملك. وإن ما نعرفه من شدة حاجة قيصر إلى هذه الأموال، يحملنا على الاعتقاد أنه أوفد البعثة بعد انتخابه قنصلا فى أول يناير سنة ٥٩ ق.م. مباشرة.

وإذن فقد كان ديودور مقيما فى مصر فى عام ٥٩ ق.م. فكم أقام بها؟ لا نستطيع أن نجزم برأى فى ذلك. ولكن الظاهر أنه غادر مصر بعد عام ٥٧ ق.م. مباشرة. فقد بدأ فى كتابه «خزانتة» فى عام ٥٦ ق.م. ونحن نرجح أن يكون قد بدأ كتابه فى بلاده حيث يستطيع أن ينظر فى مراجعه وأسانيده.

أما أنه بدأ فى كتابة «خزانتة» فى عام ٥٦ ق.م. فنستنتج من قوله إن آخر من حكم مصر من الأجانب هم المقدونيون يعنى البطالسة، وأن حكمهم دام ستا وسبعين ومائتى عام [٤١ و٤٠]. ولما كان ديودور يقرر إن الإسكندر غزا مصر عام ٣٣١ ق.م. [١٧، ٤٩] إذن يكون ديودور قد بدأ كتابة «خزانتة» عام ٥٦ ق.م.

أما آخر الحوادث التى عاصرها ديودور وذكرها فى «خزانتة» فهى قوله [١٦، ٧] «إن قيصر يعنى أوجسطس نقل أهل مدينة تورومنيوم من أعمال صقلية من موطنهم وأسكن فيه جالية رومانية» فمتى حدث ذلك؟ يقرر المؤرخ أبيان فى كتابه «الحروب الأهلية» [٥٩، ١٠٩] أن هذه المدينة رفضت أن تفتح لأوجسطس أبوابها حين التجأ إليها

فاضطر إلى لقاء سكتوس بومبيوس في عرض البحر ولم يكن قد اتخذ لذلك أهبته فدُجر أجسطس وفقد أسطوله ونجا بجلده في عام ٣٦ ق.م. فلو أن المدينة فتحت له أبوابها لاعتصم بها، وما أقحم نفسه في تلك الموقعة، وما خسر هذه الخسارة الفادحة، وهذا يفسر لنا سخطه على المدينة وعقابه لها بما ذكر ديودور. ويذكر ديوكاسيوس في كتابه «تاريخ روما» إنه بعد هزيمة سكتوس بومبي في عام ٣٦ ق.م. عاقب أجسطس كثيراً من مدن صقلية فلعل تورونيوم كانت من بينهما.

ولكن المؤرخ ديوكاسيوس يذكر [ك٥٤، ٧] أن أجسطس نظم أمور صقلية في سنة ٢١ ق.م. ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن تورونيوم قد حولت إلى مستعمرة رومانية في هذا التاريخ المتأخر. ولكننا لا نتصور أن أجسطس قد انتظر خمسة عشر عاما حتى يعاقب هذه المدينة على ما جنت، ولا نرى أن التنظيم الذي يشير إليه ديوكاسيوس كان يستدعي تحويل المدينة إلى مستعمرة رومانية بحال.

ويقرر ديودور [١، ٤] إنه قضى ثلاثين عاما في تأليف كتابه «خزانة التاريخ» وهذه الفترة الطويلة تشمل على الأرجح السنين التي قضاها في رحلاته إلى البلاد التي كتب عنها، وليس من المحتمل أن يكون قد بدأ رحلاته بمصر، بل الأرجح أنه زار روما عاصمة العالم كله حينئذ قبل زيارته لمصر في سنة ٥٩ ق.م. وأنه قضى ردحا من الزمن قبل ذلك في القراءة وجمع المصادر ومراجعة الوثائق. هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى فإن ديودور كما يتجلى في كتاباته كان شديد الإعجاب بالإمبراطورية الرومانية مشيدا بمجدها، فليس من المعقول أن

يقول إن المقدونيين آخر من حكم مصر من الأجانب لو أنه عاش إلى سنة ٣٠ ق.م. حين ضمت مصر إلى الإمبراطورية الرومانية. وإذن فقد توفي ديودور في إحدى السنين الواقعة بين سنة ٣٦ ق.م. وسنة ٣٠ ق.م. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ديودور لم يشر إلى الصراع بين أنطونيوس وأجسطس، ولا إلى بوادر قيام الحرب الأهلية بينهما، ولا إلى اكفهارار جو السياسة في العالم الشرقي قبل قيام تلك الحرب، لكان من الطبيعي أن نقول إن ديودور مؤرخ ولد سنة ٩٥ ق.م. وبدأ في تأليف «خزانة التاريخ» سنة ٦٥ ق.م. ومات سنة ٣٥ ق.م. تقريبا. وقد ذكرنا أنه بدأ كتابة «الخزانة» سنة ٥٦ ق.م. والمرجح أنه نشر الأجزاء التي تمت بمجرد فراغه من كتابتها [٤، ١]، وهذا يتفق مع ما قاله سويداس في القرن العاشر بعد الميلاد من أن ديودور اشتهر كمؤرخ في عصر أجسطس بل قبله.



إن العمل الذي تصدى له ديودور هو كما قال تدوين القصص العامة (١، ٤) أو الحوادث العامة [٥، ١] أو هو بعبارة أخرى كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى زمانه.

وإن وصف «عام» شائع مطرد في كتاباته إلى حد يدفع القارئ إلى التفكير في معنى الكلمة في ذهنه، وإلى الخروج من ذلك إلى اكتناه الغرض الذي رمي إليه المؤرخ بتأليف هذا الكتاب. ففي السنوات العشر التي تلت سنة ٧٠ ق.م. رأى ديودور أن بومبيوس قد أخضع كل شواطئ البحر المتوسط لحكم روما، وكانت مصر

وحدها مستقلة استقلالاً صورياً فحسب، فقد كان اعتلاء البطالسة عرش البلاد، رهناً بموافقة مجلس الشيوخ في روما. وطهر بومبيوس البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فساداً. وهكذا امتد النفوذ الروماني إلى أطراف العالم المتمدنين حينئذ، أو إلى أقاصى المعمورة كما قال ديودور (٤، ١)، واحتفل بومبيوس بهذا الانتصار الباهر على العالم الشرقي في عام ٦١ ق.م. ولعل ديودور قد شاهد هذا الاحتفال العظيم، أو هو سمع وصفه من أفواه الذين رأوه رأى العين.

فقد انتشرت الأعلام معلنة أن بومبيوس قد أخضع أربع عشرة دولة، وأدخل خزانة الإمبراطورية عشرين ألف طالنت، وضاعف -أو كاد- دخل الإمبراطورية السنوى. وبدا للمفكرين في تلك الأيام كأن روما قد ورثت تاج الإسكندر، وأنها تحمل لواء الرسالة التى وقف عليها حياته، وأن عهداً جديداً من السلام والإخاء والمساواة يكاد يسود العالم تحت راية روما، وأن النظرية الرواقية فى المواطن العالمى توشك أن تتحقق الآن وقد أصبحت الإنسانية تؤلف حضارة عامة واحدة، وجمعية إنسانية عامة، وهكذا أصبح فى وسع مؤرخ مثل ديودور أن يتحدث عن الحياة «العامة» التى تحياها شعوب البحر المتوسط التى صارت الآن مرتبطة أشد الارتباط تحت راية روما.

وإذا كان قولنا «الحضارة الغربية» يفيد حضارات مختلفة أشد الاختلاف فى أيامنا هذه مثل حضارتى الولايات المتحدة وأسبانيا مثلاً، فلا ضير أن يتحدث المؤرخ فى سنة ٦٠ ق.م. عن حضارة «عامة» تضم حضارات

اليونانيين والسوريين والأسبانيين والرومانيين. فقد امتحت أمام جحافل روما حدود «المدينة الحرة» التي كان المواطن غريبا في كل مكان عداها، وأصبح تاريخ كل شعب محل اعتبار الشعوب الأخرى لأن هذا التاريخ يبين ما عسى أن يضيفه هذا الشعب من تراثه إلى هذه الحضارة العامة.

وإذن فقد كانت الدوافع لكتابة «الخرزانة التاريخية» هي نفس الدوافع التي حدثت بالكاتب الراحل هـ.ج. ويلز إلى إخراج كتابه «معالم التاريخ» في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ اصطدم الناس بمأساة الحرب، فلم يدركوا على وجه التحقيق هل هم يواجهون نكبة جائحة على الحضارة الإنسانية أم هم في مستهل عهد ذهبي جديد للجمعية الإنسانية، وتعلقوا بالأمل وصار كل مفكر يفكر كما لو كان مواطنا عالميا. كذلك كان المفكر الرواقى يؤمن بعد الحروب الأهلية بأن إخلاصه لفلسفته يدعوه إلى نشر مبادئه في وحدة الجنس الإنساني، خصوصا بعد أن اطمأن إلى أن الخضوع لحكومة واحدة لا يعنى فناء الثقافات المتباينة فى ثقافة الدولة المسيطرة، الأمر الذى قامت روما شاهدا على صحته. وأصبح تأليف التاريخ الإنساني من وجهة النظر الرواقية رسالة فى إضعاف الروح القومية الجامحة، ووسيلة لإقامة صرح التفاهم بين الأمم بتوطيد الروابط الثقافية بينها. فلا غرو، وتلك رسالة المؤرخ الرواقى، أن يقرر ديودور أن تأليف تاريخ عام، أمر على أعظم جانب من الأهمية للقارئ المحقق [١، ٣].



ويدعى ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن في أوروبا وفي الشرق، وأنه لاقى في هذا السبيل متاعب وأهوالا جساما، ولكن ليس في كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلادا غير روما التي قضى فيها زمنا ما، ووجد فيها كثيرا من المواد الأساسية لدراسته [١، ٤]، ومصر، التي انحدر فيها جنوبا حتى منف. فقد ورد في وصف منف ذكر ضريح لإزييس «يرى إلى وقتنا هذا في حرم معبد هيغا بستوس» [١، ٢٢]. ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر، محتجين على ذلك بأن الدقة التي يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم [١، ٤٧] لا تتأتى إلا لشاهد عيان. ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزى الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس، فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر. أما سائر ما ورد في رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيروdotus وهيكاتيوس والمؤرخ الجغرافي أجاثر خيديس إلا كنيدي الذي عاش في القرن الثاني ق.م.

ويشير ديودور أحيانا كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيروغليفية كأنه اعتمد عليها في إثبات تاريخ البلاد والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفية، فإشارات إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس.

ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد ما بين النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر الفرات. ومن حسن الظن به أن ننفي أمر ذهابه إلى أثينا، هذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد في بدائع الأوروبول ما يستحق الذكر.

وقال ديودور إنه اكتسب من الرومانيين في صقلية معرفة واسعة باللغة اللاتينية [١ ، ٤]. ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل في دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية، ويذهب بعض النقاد إلى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يكاد يكون تاما، ولكننا لن نأخذ برأيهم دون تحفظ. فلعل معرفته باللغة اللاتينية كانت بالقدر الذي يسمح له بالنظر في المصادر ومراجعتها.



بدأ ديودور تاريخ العالم بعصر الأساطير ووقف عند سنة ٥٩ق.م. وهي السنة التي تولى فيها قيصر القنصلية للمرة الأولى. وكانت «خزانة التاريخ» مؤلفة من أربعين جزءا، يظهر أنها كلها كانت على حجم واحد. ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمسة الأولى، والأجزاء العشرة من الجزء الجادى عشر إلى الجزء العشرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجزاء التي ضاعت مقتبسة في كتب بعض الكتاب الأقدمين وعلى رأسهم يوسيبوس Eusebius وعند المصنفين البيزنطيين.

ولقد وضع ديودور منهجا في المقدمة [١ ، ٤] يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحروب الطروادية، والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى موت الإسكندر أما الكتب الثلاثة والعشرين الأخيرة فتروى قصة العالم من موت الإسكندر إلى عام ٥٩ق.م.

ولنفصل موضوعات الأجزاء المختلفة فيما يلي :

الكتاب ١ يتناول تاريخ مصر.

الكتاب ٢ يتناول تاريخ آشور والهند وبلاد العرب.

الكتاب ٣ يتناول تاريخ بلاد الحبشة ويبحث في أصل الآلهة.

الكتاب ٤ يتناول تاريخ الأساطير المتصلة بآلهة اليونانيين الكبرى ،

وأسطورة السبعة ضد طيبة.

الكتاب ٥ يتناول تاريخ الجزائر الغربية وجزيرتي رودس وكريت.

وهذه الأجزاء ليست بذات خطر من الوجهة التاريخية المحضة ، لأنها

تدور حول موضوعات واسعة لا يسهل حصرها ، ولأنها كذلك محشوة

بالأساطير والخرافات.

الكتاب ٦ - ١٠ ضاعت ، ولم يبق منها إلا مقطوعات تدور أقدمها حول

الحروب الطروايدية وأحدثها تروى وقائع سنة ٤٨٠ ق.م. ومن هذا التاريخ

يعتمد ديودور على كتاب المؤرخ إفوروس Ephorus «في التاريخ العام».

الكتاب ١١ يتناول تاريخ الفترة من ٤٨٠ إلى ٤٥١ ق.م.

الكتاب ١٢ يتناول تاريخ الفترة من ٤٥٠ إلى ٤١٦ ق.م.

ونلاحظ هنا أن ديودور هو الحجة الكبرى في تاريخ الفترة الواقعة

بين ٤٨٠ ق.م. و ٤٣٠ ق.م. فقد تناولها ثيوكلديدس باختصار في ثلاثين

فصلا فقط.

الكتاب ١٣ يتناول تاريخ الفترة من ٤١٥ إلى ٤٠٥ ق.م.

الكتاب ١٤ يتناول تاريخ الفترة من ٤٠٤ إلى ٣٨٧ ق.م.

الكتاب ١٥ يتناول تاريخ الفترة من ٣٨٦ إلى ٣٦١ ق.م.
ويلاحظ أن هذه الكتب ليست بذات خطر لأن المؤرخين
ثيوكيدديس وكرينوفون قد تناولوا الفترة الواقعة بين سنة ٤٣٠ ق.م.
و٣٦٢ ق.م بالتفصيل وكلاهما معاصر لحوادثها.

الكتاب ١٦ يتناول تاريخ الفترة من ٣٦٠ إلى ٣٣٦ ق.م.
الكتاب ١٧ يتناول تاريخ الفترة من ٣٣٥ إلى ٣٢٤ ق.م.
الكتاب ١٨ يتناول تاريخ الفترة من ٣٢٣ إلى ٣١٨ ق.م.
الكتاب ١٩ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٧ إلى ٣١١ ق.م.
الكتاب ٢٠ يتناول تاريخ الفترة من ٣١٠ إلى ٣٠٢ ق.م.
ويلاحظ أن هذه الكتب عظيمة الشأن من الناحية التاريخية،
ففى تاريخ الفترة الواقعة بين ٣٣٦ و٣٢٣ ق.م. ديودور هو العمدة
الأكبر فهو يسرد حوادثها مسلسل سنة بعد أخرى، ويعطى بذلك صورة
شاملة لعهد فيليب المقدونى، وهو فى الفترة الواقعة بين سنة ٣٣٦
وسنة ٣٠٢، يسد الثغرات التى تقع بين المؤرخين الأقدمين. فيكمل
ما يدور فى تواريخهم من نقص. أما عن تاريخ خلفاء الإسكندر فديودور
هو المرجع الوحيد فى أيدى المؤرخين، ولذلك كان للكتب ١٨ و١٩
و٢٠ شأن كبير.

الكتب ٣١ - ٤٠ تتناول الفترة الواقعة بين ٣٠١ وسنة ٦٠ ق.م.
ولم يبق منها إلا مقطوعات قليلة.



والآراء متضاربة في أمر طريقة ديودور في التأليف. فيرى البعض أنه يعتمد في تاريخ عصر ما على مؤلف واحد يختاره، ثم يسد ما يبدو له من أوجه النقص من مؤلفين آخرين، ولكننا لا نستطيع أن نقر هذا الرأي، فإن الكتاب الأول «في مصر» يثبت أنه رجع إلى مصادر كثيرة، وأنه استوعبها كلها، وأنه بدأ في الكتابة بعد دراسة طويلة لمراجعته، وأنه يذكر أحيانا مصادره، ويغفل ذكرها أحيانا أخرى.

ويقول ديودور إن تأليف كتاب في التاريخ العام عمل شاق [١،٣] لأن مواد الدراسة متفرقة في كتب كثيرة، والآراء فيها متباينة تباينا شديدا، ولعله اختار هذا النحو من القول لإبلاغ القارئ أن ما في الكتاب مستقى من مصادر سابقة، هذا إلى أن في اختيار العنوان «خزانة التاريخ» ما يشي إلى أن ديودور يرى أن تاريخه لا يعدو أن يكون ملخصا وافيا لتاريخ مطول في مصادر متفرقة.

الكتاب الأول

يبدأ الكتاب الأول بمقدمة في دراسة التاريخ، تبين أن ديودور يؤمن إيماناً راسخاً بعقيدة الرواقيين في فائدة دراسة التاريخ العملية، ويقرر فيها أن ليس من أهدافه أن يجعل من تاريخه أداة لتسليّة القارىء أو تزجية فراغه، أو إشباع شهوة الاطلاع فيه. كان غرضه الأول بيان ما يمكن أن تأخذ به الإنسانية من أنظمة كل بلد، ومن أغراضه ولا شك إذاعة شهرة عظماء الرجال، والتنويه بجلائل أعمالهم، حفزاً لهم، وحثاً على العمل. ويتحدث بعد ذلك عن منشأ الكائنات الحية، لأن في الأساطير ما يشير إلى أن الكائنات الحية ظهرت أول الأمر في مصر، وكان نشوؤها ذاتياً [١٠، ١]، ولقد ظل هذا الاعتقاد سائداً إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد. ثم يتحدث عن الآلهة، لأن مصر موطنها الأصلي فيما تقول الأساطير [١٠، ٩]، وليس احتفال ديودور بآلهة مصر، ناشئاً عن ولع بمصر أو غرام بالوصول إلى الحقيقة، بل كان محاولة في تفهم الدين المصرى على اعتبار أنه أصل الديانة اليونانية، فقد كان ديودور مؤمناً إيماناً عميقاً بالآلهة اليونانية، ولقد تجلت شدة إيمانه بها في حديثه عن الزلازل والفيضانات التي حدثت في بلاد اليونان في سنة ٣٧٣ ق.م، فقد عزاها إلى غضب الآلهة وخصوصاً بوزيدون إله البحر. هذا مع أنه كان مطلعاً على ما أبداه الفلاسفة الطبيعيون من أسباب لهذه الزلازل، وتعليل لهذه الفيضانات.

ولقد شغله أمر الدين في مصر عن تسجيل الحوادث السياسية والاجتماعية بعض الشيء، وليس هذا شأنه دائما، فقد كان قليل الالتفات لمظاهر الدين حينما تناول تاريخ العصور المتأخرة في بلاد اليونان مثلا.

ثم ينتقل إلى تاريخ البلاد السياسي، ونظامها الاجتماعي، وعنى بتفصيل أمر الطبقات، ونوه بفضل النظام الأرستقراطي في الحكم، فقد كان ديودور من عائلة أرستقراطية، وكره تدخل العامة في السياسة وهاجم النظام الديمقراطي في كل مكان، محتجا على ما كان من انحلال أئينا من جراء إشراف العامة على سياسة البلاد.

أما المصادر التي اعتمد عليها في تاريخ مصر، فالمرجح إنه اعتمد فيما روى من عادات أهل البلاد وتقاليدهم على المؤرخ هيكاتيوس الأبدري الذي زار مصر في أوائل القرن الثالث ق.م. واعتمد في وصف البلاد والحديث عن نهر النيل على المؤرخ الجغرافي أجاثارخيديس الإكنيدي الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني ق.م. وألف كتابا عن «البحر الأحمر» في خمسة أجزاء. واعتمد في الناحية التاريخية على هيرودوت.

وكثيرا ما يذكر ديودور روايات الكهنة المصريين فيما يستوضحهم من مسائل، ولعله أضاف إلى ذلك ملاحظاته الشخصية لآثار البلاد وسكانها.

وثمة مصدر آخر، فقد كانت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية عندما زار ديودور مصر، وكانت كذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،

وكانت سائدة في الأوساط المتعلمة وصاحبة النفوذ، ففعل هؤلاء كانوا مصدرا من المصادر التي استقى منها معلوماته. هذا إلى أنه لم يكن من الميسور للكهنة وهم يعلمون صلته بمن يتكلمون اللغة اليونانية من أهل البلاد، أن يملوا عليه معلومات زائفة لا قدرة له على نقدها كما كان الأمر بالنسبة لهيرودوت مثلا. وهذا مما يعلى من شأن كتابه عند المؤرخين. وفي الكتاب من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأنه رجع إلى أحسن المصادر في استقاء تاريخه، وأنه عرض آراء مؤلفيها أحسن عرض وأصدق، وإن الكتاب الأول الذي يكاد يكون مقصورا على تاريخ مصر، هو أدق وأوفى رواية أدبية - بعد كتاب هيرودوت - في تاريخ البلاد، ووصف آثارها، وتقاليدها أهلها.

وبعد فهذا كتاب ألف منذ حوالي ألفين من السنين، ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحرج من التصرف في ترجمته، ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره، وأبقينا على أسماء البلدان كما جرى بها قلمه، وأثبتنا في لحن خاص ما يقابلها في العصر الحديث، وكذلك الأمر في الموازين والمكاييل والأطوال.

الجزء الأول

﴿ إن الذين اضطلعوا بكتابة «تاريخ عام» لهم على الناس أجمعين حق الشكر الجزيل لأنهم كابدوا متاعب شخصية للنهوض بالحياة الإنسانية عامة. وإن التعاليم المفيدة التي يعرضونها في دراستهم لا تشوبها شائبة من خطر في حين يقدمون لقرائهم أئمن تجربة. والحق أن تمثل التجربة في كل حالة على حدة يتضمن مشاقا وأهوالا كبيرة حينما:

«عين مدنا لشعوب كثيرة، ودرس فكرهم»^(١)

وإن ما تقدمه لنا دراسة التاريخ من فهم لسقوط الآخرين ونجاحهم ليذودنا بتعليم دون مقاساة تجارب. وبعد فقد أخذ المؤرخون على عواتقهم أن يجمعوا في رسالة واحدة بعينها الجنس الإنساني كله - هذا الجنس الذي يقرب بعضه من بعض في الرحم ولكنه يبتعد بعضه عن بعض في الزمان والمكان. وبهذا النحو يعمل المؤرخون كما لو كانوا قد خلقوا أداة للعناية الإلهية. لأن العناية الإلهية بعد أن أقامت الصلات بين نظام الكواكب المرئية الثابت وبين أخلاق الناس، جعلت العالم كله تحت إشراف مستمر إلى الأبد. وأفردت لكل نصيبه وفقا لمشيئة الأقدار.

(١) البيت لهوميروس من الأوديسية الكتاب الأول، البيت الثالث

وكذلك المؤرخون يسردون حوادث الماضى فى العالم كله كما لو كان العالم بلدا واحدا، فيقدمون فى بحوثهم ثبوتا واحدا لحوادث الماضى فى متناول الجميع. وجميل أن نستطيع أن نتخذ من خطأ الآخرين الأعمى موعظة لإصلاح سلوكنا وأن تكون عدتنا فى صروف حياتنا المتشابكة تقليد الذين نجحوا فى الماضى لا بحث الحوادث الراهنة. وفضلا عن ذلك، فالناس كلهم يفضلون الشيوخ على الشبان فى المشاورة لما أضفته عليهم السنون من خبرة. ولكن دراسة التاريخ تفوق التجربة الفردية بما تمتاز به حقا من الشواهد الكثيرة. ومن هنا يصح أن نعتبر تحصيل المعلومات التاريخية أفيد شىء فى صروف الحياة وتقلباتها. فمن التاريخ يتعلم الشبان حكمة الشيوخ، ويجد الشيوخ تجاربهم التى حصلوها مضاعفة. ويجعل التاريخ المواطن العادى قادرا على القيام بأعباء القيادة، ويدفع القادة بأمل الشهرة الخالدة إلى الاضطلاع بأنبيل الغايات. هذا إلى أنه يجعل الجند أكثر استعدادا لمواجهة الأخطار فى سبيل بلادهم، أملا فى حسن الذكر بعد الموت، وهو يثنى الأشرار ويقمع دوافع الشر فيهم خوفا من العار الأبدى.

٢ وبالجملة فقد كان الأمل فى طيب الذكر فى التاريخ حافزا للبعض على إنشاء المدن وللبعض الآخر على شرع القوانين التى تحيط الجمعية الإنسانية العامة بسياج من الأمان، وباعثا للكثيرين على الاجتهاد فى ابتكار الفنون والعلوم لفائدة الجنس الإنسانى. ولما كانت سعادتنا تتحقق بجماع هذه المجهودات فيجب علينا أن نكيل أعلى

أقداح الثناء لسببها الرئيسي وهو التاريخ، وينبغي لنا أن نرى في التاريخ حاميا لفضيلة النابهين، وشاهدا على رذيلة الوضعاء، ومنعما على الجنس الإنساني عامة. ذلك أنه إذا كانت الأساطير التي تدور حول العالم السفلي - وليس لها أساس من الحقيقة - عاملا كبيرا في تقوى العالم وعدله، فكم يكون التاريخ، وهو نبي الحق، ومعقل الفلسفة كلها، أشد قدرة في رأينا في توجيه الأخلاق الإنسانية نحو النبل والشرف؟ والحق أن الناس أجمعين - لما فطرت عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف - يحيون فترة قصيرة فحسب من الأزل، وهم بعد هذه الحياة أموات إلى الأبد. فأولئك الذين لم يقوموا بعمل مذكور في حياتهم. عندما تفنى أجسامهم يفنى معها كل ما يتصل بحياتهم. أما الذين كسبوا الشهرة بفضائلهم، فتذكر أعمالهم على الدوام، يهتف بها صوت التاريخ الإلهي عاليا. ومن الخير فيما أعتقد ويوافقني في ذلك العقلاء من الناس، أن نحظى بشهرة باقية لقاء نصب زائل. فهرقل مثلا قد تجشم بمحض اختياره - والروايات كلها متفقة في ذلك - طول الوقت الذي قضاه بين الناس مشاقا وأهولا مستمرة ليفيد الإنسانية فيحظى بالخلود. أما سائر فضلاء الرجال، فقد اكتسب بعضهم مجد الأبطال، والبعض الآخر مجد الآلهة، واعتبروا جميعا أهلا لخالص الثناء، وقد خلد التاريخ فضائلهم. وتبقى سائر الآثار زما قصيرا ثم تأتي عليها الصروف المختلفة، أما قوة التاريخ فتنبسط على المعمورة كلها وتتخذ من الزمان الذي يعدو على كل ما عداه حاميا للتراث المقيم بين الأعقاب. ويضيف التاريخ كذلك

قوة البيان وليس من السهل أن يجد المرء شيئاً آخر أفضل من هذا. فبه فاق اليونانيون البرابرة، والعلماء الجهال، هذا إلى أنه بوساطة هذا الفن وحده يتأتى لفرد واحد أن يسود الآخرين وبجملة من القول، كل ما يعرض علينا يتخذ صورة متساوقة مع قدرة الخطيب الذي يعرضه، ونحن نسمى الرجال الفضلاء جديرين بالذكر، كأنهم ظفروا بالذكر بالقدح المعلى فى الشرف. وإذا قسّم البيان إلى فروعه العديدة، لوقع أن الشعر يعطيك لذة لا فائدة. والقوانين تردع دون أن تهذب، وهكذا فى سائر الفروع، بعضها لا يضيف شيئاً إلى سعادتك، ويسبب بعضها الآخر ضيقاً ممزوجاً بالفائدة، والبعض الآخر يغير الحقيقة، ولكن التاريخ وحده الذى تنسجم فيه الأقوال مع الأفعال، يتضمن فى كتبه كل الفوائد. والتاريخ كما يرى يحث الناس على العدل، ويثلب الأشرار، ويقرظ الصالحين، وبالاختصار فهو يفيد قرأه خبرة ثمينة.

❦ ولذلك كلما رأينا الذين يعنون بكتابة التاريخ يحظون بما هم أهل له من ثناء، انسقنا إلى النزول إلى حلبتهم، ولما صرفت ذهنى إلى المؤرخين السابقين، وبالرغم من موافقتى التامة على غايتهم، استخلصت من كتبهم أنهم لم يجتهدوا فى تأليفها أن يبلغوا كمال النفع كما كان ينبغى، ذلك بأنه بالرغم من أن فائدة القارئ تتحقق بفهم الكثير من الملابس الشديدة الاختلاف، فإن أكثر المؤرخين سردوا أخبار حروب تامة فى حد ذاتها، شنّها شعب واحد أو دولة

واحدة ولم يحاول إلا القليل أن يسردوا تاريخ الشعوب كلها من العصور القديمة إلى أيامهم، وحتى هؤلاء لم يضع بعضهم كل حادثة في سياقها المناسب، وأهمل آخرون أخبار البرابرة. وأكثر من ذلك، فقد رفض بعض المؤرخين الأساطير القديمة لصعوبة تناولها، في حين أن البعض الآخر لم يستطيعوا أن يتموا نهجهم لأن القدر اقتضب حياتهم^(١).

وفضلاً عن ذلك، فلم ينحدر واحد ممن تصوروا فكرة كتابة التاريخ العام بتاريخه إلى ما بعد العصر المقدوني، فقد وقف بعضهم بتاريخه عند أعمال فيليب^(٢)، والبعض الآخر عند أعمال الإسكندر، وبعضهم وقف به عند خلفاء الإسكندر أو سلالاتهم. وبالرغم من أن حوادث خطيرة قد وقعت في الفترة التالية لهذا العهد، ولم تؤرخ إلى عهدنا هذا، فلم يتصد مؤرخ واحد إلى تأليفها في سفر واحد، لضخامة العمل، ولما كانت تواريخ الحوادث، والحوادث نفسها متفرقة في رسائل متعددة لمؤلفين مختلفين. فمن الصعب فهم هذه الفترة وتذكرها. وهكذا بعد أن فحصنا جميع المناهج التي اصطنعها كل من هؤلاء المؤرخين، عقدنا العزم على أن نأخذ بأكثرها فائدة للقارئ وأقلها مشقة عليه. ذلك أنه إذا أخذ المؤرخ على عاتقه أن يسرد - بقدر ما وسعته طاقته - ما تواتر

(١) يظهر أن ديودور يعني هيروdotus ولم يكن له نظام ثابت في تقويم الحوادث، وأناكسيمينيز من أهل لامبساكوس وقد قصر كتابه «يونانيات» على تاريخ اليونانيين، وافيوروس الكيمي الذي اغتاله الموت قبل أن يفرغ من كتابة تاريخه فوقف به عند سنة ٣٤٠ ق.م.

(٢) فيليب الثاني ملك مقدونية ٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م. وهو أبو الإسكندر الأكبر ٣٣٦ - ٣٢٣.

لدى الناس من تاريخ العالم كله كأنه تاريخ بلد واحد، من العصور القديمة إلى العصر الذي نعيش فيه، فسيتجشم كما هو ظاهر مشاقا كثيرة، ولكنه سيؤلف أفيد الأسفار في عين القارئ المدقق. وسيكون في استطاعة كل قارئ أن يستنبط كما يشاء، من هذا الشعر - كما لو كان نبعاً مترعاً - ما عساه أن يكون ذا فائدة له في ملابساته الخاصة. ويجد الكتاب الذين يتصدون لسرد حوادث قد دونها هذا العدد الضخم من المؤرخين أن من العسير أولاً الحصول على الكتب اللازمة لهم، ومن الصعب ثانياً تفهم سير الحوادث وضبطه لاختلاف المصادر وكثرتها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالموضوع الذي تحتويه دفئا سفر واحد ويشيع فيه سياق متصل للحوادث يكون من السهل قراءته وبسيط للغاية تتبعه وفهمه. وبالجملة ينبغي أن نعتبر هذا المنهج الأخير من التاريخ أفضل من سائر المناهج كما أن الكل أفضل من الجزء، والسياق المتصل خير من المتقطع كما أن الحادثة التي يضبط تاريخها بدقة أفيد من حادثة لا يعرف في أي زمان وقعت.

ولذلك فلما أن رأيت أن هذا المنهج في التأليف وهو عظيم الفائدة يتطلب عملاً شاقاً وزمناً طويلاً فقد اشتغلت به ثلاثين عاماً. واحتملت فيه مشاقاً وأخطاراً جسيمة، فزرت رقعة واسعة من آسيا وأوروبا لأرى بنفسى أكثر الأماكن وخصوصاً أكبرها خطراً. فقد كان الجهل بوصف المواقع في الحقيقة سبباً في كثير من الأخطاء التي وقع فيها مؤرخون، لا من الطبقة المتوسطة وحدها، بل ممن بلغوا ذروة الشهرة. وكان مما سعدنى على القيام بهذا المشروع أولاً وقبل كل

شيء شغفى بالدرس، فالشغف هو الذى يتيح للناس أجمعين أن يقوموا بأعمال تبدو بعيدة التحقيق. وأتيح لى ثانيا مدد عظيم فى روما من كل ما يمت لموضوعنا بصلة. لأن سمو هذه المدينة التى يمتد سلطاتها إلى أطراف العالم هياً لنا أثناء إقامتنا الطويلة فيها كثيراً من المواد القريبة المتناول، إذ لما كنا من أهل مدينة أجريوم فى صقلية، وكنا على صلات وطيدة بالرومان فى هذه الجزيرة واكتسبنا معرفة واسعة بلغتهم^(١)، فقد وقفنا على معلومات دقيقة لكل مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الوثائق الرسمية المحفوظة بعناية فى روما منذ أحقاب عديدة. ولقد استهلت تاريخنا بسرد أساطير اليونانيين والبرابرة بعد أن محصنا - بقدر ما وسعنا الجهد - الروايات التى أدلى بها كل شعب عن عصوره القديمة. والآن وقد فرغ هذا السفر، ولو أن بعض أجزائه لم ينشر بعد، أحب أن أكتب مقدمة قصيرة تلم بأطراف الموضوع كله. فالكتب الستة الأولى تدور حول تاريخ الفترة السابقة لحرب طروادة^(٢) وأساطيرها، وتتناول الثلاثة الأولى منها تاريخ البرابرة القديم، والثلاثة التى تليها تكاد تكون قاصرة على تاريخ اليونانيين، ورويت فى الكتب الإحدى عشر التالية التاريخ العام من حرب طروادة إلى موت الإسكندر. وأثبت فى الثلاثة والعشرين كتاب التالية سائر الروايات إلى مبدأ الحرب بين الرومانيين والغالين، تلك الحرب^(٣) التى هزم فيها القائد جايوس

(١) كانت اللغة اليونانية لغة صقلية الأولى فى ذلك العصر.

(٢) المأثور أن الحرب الطروادية دارت من سنة ١١٩٢ إلى سنة ١١٨٣ ق.م.

(٣) بدأت الحرب الغالية سنة ٥٩ ق.م.

يوليوس قيصر -الذي أله من أجل أعماله المجيدة- أكثر قبائل الغال، وأشدّها شغفا بالحرب، ومد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى الجزائر البريطانية. ولقد وقعت الحوادث الأولى من هذه الحرب في السنة الأولى من الأولمبياد الثمانين بعد المائة حين كان هيروُدس Herodes حاكما في أثينا.

٥ تلك إذن العهود التي يتناولها هذا السفر، وإنّي لم أحدد بالدقة حوادث العهد السابق للحرب الطروادية لأنه لم يصلنا تقويم نظمئن إليه في تاريخ حوادث هذه العهود. ولكننا تابعنا أبو اللودوروس الآثيني^(١) في حساب ثمانين سنة بين الحرب الطروادية ورجوع أحفاد هرقل، ومن هذا التاريخ إلى الأولمبياد الأولى حسبنا ٣٢٨ سنة، وحسبنا الفترة منذ حكم الملوك في أسبرطة ومنذ الأولمبياد الأولى إلى بدء الحرب الغالية التي جعلناها نهاية تاريخنا بـ٧٣٠ سنة، وهكذا يتناول هذا السفر المؤلف من أربعين كتابا تاريخ ١١٣٨ سنة فيما عدا العهد الذي وقعت حوادثه قبل الحرب الطروادية.

وإنّا نشرح هذه المسائل بدقة باديء ذي بدء لحرصنا على أن تعطى القارئ صورة عامة للموضوع كله، ولنمنع الذين دأبوا على تصنيف الكتب من مسخ أعمال غيرهم^(٢) أما نحن فنرجو ألا يثير ما دون في هذا

(١) فيلسوف ومؤرخ عاش في القرن الثاني ق.م. تناول في كتابه «التقويم» الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩ ق.م.

(٢) قال ديودور في كتابه الجزء ٤٠، ٨ أن بعض أجزاء الكتاب وصلت إلى أيدي الجمهور قبل نشر الكتاب كله. ففعل في هذه الجملة إشارة إلى عبت الناشرين بكتبه.

السفر كله على وجه الدقة حسداً، وأن تلاقى الأخطاء التي نتجت عن الجهل تصويبا ممن هم أكثر منا علما.

والآن وقد بينا نهجنا وغايتنا سنحاول أن نحقق ما وعدنا به من

بحث.

٦ لن أثبت بحثا قائما بذاته مفصلا في العقائد الإلهية التي اعتنقها أولئك الذين كانوا أول من أدخل عبادة الآلهة، ولا الأساطير التي رووها عن كل إله من الآلهة لأن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض. ولكننا سنثبت باختصار كل ما نراه متصلا بدراستنا هذه حتى لا يفوتنا شيء يستحق الذكر. أما فيما يتعلق بالجنس الإنساني قاطبة فسأتناول بدقة الحوادث التي وقعت في الأنحاء المعروفة من المعمورة بقدر ما يتيسر لنا في مسائل حدثت في هذا العهد البعيد، بادئا بأقدم العصور.

أما في مسألة خلق الإنسان في البدء فهناك رأيان عند أشد الفلاسفة الطبيعيين والمؤرخين تحقيقا. فبعضهم يرى أن العالم لم يحدث أبد وأنه لن يزول، ويقولون إن الجنس الإنساني كذلك وجد منذ الأزل وأنه لم يكن هناك أبدا زمن بدأ فيه الإنسان في الظهور^(١) ويرى الآخرون أن العالم حادث وسوف يزول، ويقررون أن الجنس الإنساني كذلك كان ظهوره الأول في وقت معلوم.

٧ والمقول إنه في البدء عندما كان الكون في حالة تكوين، كانت السماء والأرض في صورة واحدة لأن طبيعتهما كانت متحدة،

(١) كان هذا رأى أرسطو وخليفته ثيوفراست.

وبعد ذلك عندما انفصل جسماهما الواحد عن الآخر، أخذ الكون المظهر الذى يبدو فيه الآن. أما الهواء فأخذ في حركةٍ مستمرة، وارتفع العنصر النارى فيه إلى الأجواز العليا، فكل ما له هذه الطبيعة يرتفع إلى أعلى لخفته، وهذا هو السبب في أن الشمس وكل مجاميع الأجرام دائبة الحركة الكونية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يهبط العنصر اللزج الكثيف والمادة السائلة معا إلى أسفل لثقلهما، وهذا العنصر يتركز دائما في نفسه ويتكثف وهكذا كوّن البحر من السوائل وكوّن من الأجزاء الأكثر صلابة أرضا كانت لا تزال لزجة شديدة الرخص، وعندما أرسلت الشمس أشعتها عليها صارت هذه الأرض أولا صلبة وبعدها عندما جعلت الحرارة أديم الأرض عطنا انبتت بعض الرطوبة في مواضع متعددة وتكونت فيها مواد عطنة مغطاة بغشاء رقيق. وتلاحظ هذه الظاهرة إلى الآن في أرض البرك حينما تبرد الأرض ويصبح الهواء فجأة شديد الحرارة، فالعناصر الرطبة التي تحييها الحرارة كما قد بينا، تتغذى مباشرة أثناء الليل من الضباب الذى يتكثف من الهواء المحيط، أما بالنهار فتصلبها الحرارة الشديدة، وأخيرا عندما بلغت هذه الجراثيم أقصى نمائها وأصبح الغشاء شديد السخونة فتشقق، نشأت مخلوقات من جميع الأنواع. فأما التي اكتسبت منها حرارة شديدة، فقد اتخذت أجنحة وارتفعت إلى الأجواز العالية، وأما التي تعلقت بالطبيعة الأرضية فقد اندرجت بين الزواحف وسائر الهوام الأرضية. هذا في حين أن تلك التي كان لها نصيب كبير من العنصر المائى في

تكوينها فقد استجابت إلى المنطقة التي تشابه طبيعتها وصارت كائنات مائية. وحيث أن الأرض تزداد باستمرار صلابة بتأثير حرارة الشمس والهواء، فقد أصبحت أخيرا غير قادرة على أن تخرج أيا من الكائنات الكبيرة، وبدلا من ذلك صار كل نوع من الكائنات الحية يتولد بمعاشرة كائنٍ آخر. ويبدو أن يوريبديدس وهو تلميذ أناكساجوراس^(١) الفيلسوف الطبيعي لا يرى غير الرأي الذي أسلفنا ذكره في طبيعة الكون، فقد أوردته في مسرحية ميلانيبي هكذا:

وهكذا كانت السماء والأرض في صورة واحدة.
ولما فتقتا وانفصلتا الواحدة عن الأخرى.
أنجبتا كل شيء وأرسلتا به إلى النور.
الأشجار وذوات الأجنحة والكواسر،
والهوام التي يغزوها البحر والإنسان القانى.

هذه إذن هي الرواية التي وصلتنا عن مبدأ تكوين العالم، ويقولون أيضا إن الناس البدائيين، وكانوا يعيشون عيشة فوضى وحشية، كانوا يخرجون إلى المراعى فرادى ويأكلون ألد العشب وثمار الأشجار البرية، ولما كانت الحيوانات المفترسة تهاجمهم، ساعد بعضهم البعض بدافع من المصلحة، ولما حدا بهم الخوف إلى التجمع، أصبحوا بالتدريج يعرفون هيئة بعضهم بعضا. وكان منطقتهم مشكل لا يبين. وأخرجوا شيئا

(١) أناكساجوراس فيلسوف من المدرسة الأيونية عاش في القرن الخامس ق.م. ويأتى ذكره ثانية في الفصل الثامن والثلاثين.

فشيئا ألفاظا مبينة. وبعد ذلك اصطاحوا فيما بينهم على رموز للأشياء التي في متناولهم، وأبان بعضهم لبعض عن أفكارهم في كل أمر. وقامت جماعات على هذا النحو في العالم كله، ولذلك لا يتكلم الناس كلهم لغة واحدة، لأن كل جماعة ألفت لغتها كيفما اتفق، وهذا هو تفسير اختلاف اللغات، وهذه الجماعات البدائية للإنسان هي أصل الشعوب كلها. واذن فقد عاش الناس الأول حياة شاقة، فلم تكن واحدة من مقومات الحياة قد عرفت بعد، فلم تكن لهم ملابس ولم يكونوا قد عرفوا المساكن والنار ولم يفتنوا بتاتا إلى الغذاء المزروع. وكانوا في الحقيقة في جهل تام بحصاد المحصولات البرية، فلم يهيئوا مخازن للحبوب لتفي بحاجتهم. وهكذا كان الكثيرون منهم يموتون في الشتاء من جراء البرد وقلة الغذاء. ولكن التجربة علمتهم شيئا فشيئا أن يتخذوا من الكهوف مأوى أثناء الشتاء، وكانوا يختزنون فيها من نباتات الحقل ما أمكن الاحتفاظ به، ولما عرفوا النار وسائر المقومات المفيدة، اكتشفت شيئا فشيئا الفنون والحرف وسائر ما عساه أن يكون ذا فائدة في حياة الإنسان. وبالجملة: فالضرورة وحدها هي التي علمت الإنسان كل شيء. ففي كل فن كانت الضرورة هاديا للرجل الذكي الذي أوتى يدين قادرتين على كل عمل وفصاحة منطوق وذكاء عقل.

وسنكتفي بما أسلفنا في مسألة مبدأ خلق الإنسان وحياة البدائية، فغايتنا أن نحفظ بالتناسب في هذا السفر.

٩ وسنحاول الآن أن نسرد الحوادث التي وقعت كما وصلنا في مأثور القول، في الأنحاء المعروفة من المعمورة. ولسنا بقادرين أن

تحدث عن أول من حكم من الملوك، ولا أن نتبع في هذا الصدد المؤرخين الذين يدعون معرفتهم. فمن غير المعقول أن يكون اكتشاف الكتابة قديما إلى حد أنه كان معاصرا للملوك الأول، وحتى إذا سلمنا بهذا الفرض فإنه من الواضح على أي حال أن المؤرخين فئة حديثة الظهور في الحياة العامة. ولا يدعى اليونانيون وحدهم إنهم أقدم الأجناس، بل يشاركونهم في هذا الادعاء كثير من البرابرة، ذلك بأنهم يعتبرون أنفسهم سكان العالم الأصليين وأول من اكتشف الأشياء المفيدة في الحياة، ويعتقدون أن حوادث تاريخهم أول ما اعتبر أهل للتسجيل. ولسنا بقادرين من ناحيتنا أن نرى وجه الحق في أمر يقدم كل شعب، ولا أن نقطع برأى في أي الشعوب سبق الآخر في القدم، وبكم من السنين سبقها. ولذلك فسوف نسردهنا باختصار الروايات التي يدلى بها كل شعب في قدمه وتاريخه المتقادم. فغايتنا أن نحفظ بالتناسب في هذا السفر، وسنتناول أولا تاريخ البرابرة، وليس ذلك لأننا نعتقد أنهم أقدم من اليونانيين كما قال إيفوروس Ephorus بل لأننا نريد أن نروى بادية ذي بدء تاريخهم حتى إذا بدأنا قولنا في تاريخ اليونانيين لا نقحم حادثة أجنبية في سياق تاريخهم.

ولقد كانت مصر، كما تروى الأساطير مهد الأرباب الأول، وهناك فيما يقال بدأ رصد النجوم، هذا إلى أن حوادث كثيرة جدية بالذكر قد سُجِّلت لعظماء الرجال فيها.

لذلك سنبدأ هذا السفر بتاريخ مصر

١٥ يقول المصريون إنه في البدء عندما خلق العالم ظهر الإنسان أولاً في مصر، وذلك لاعتدال مناخ البلاد ولطبيعة نهر النيل فإن هذا النهر الوافر الإنتاج الذي يهيئ الغذاء الذي ينمو نمواً طبيعياً يقيم بسهولة أود المخلوقات بمجرد نشوئها، ذلك أن جذور الغاب واللوطس وكذلك الفول المصري والنبات المسمى كورسيون^(١) وكثيراً غيرها مما يشاكلها تكفل لبنى الإنسان غذاءً صالحاً شهياً. وهم يحاولون أن يدللوا على صحة ما يذهبون إليه من أن المخلوقات قد ظهرت أولاً في أرضهم، بأن الأرض حول طيبة تخرج إلى يومنا هذا في بعض الفصول جرداناً كبيرة الحجم غفيرة العدد إلى حد يملأ الناظر عجباً من هذه الظاهرة، وبعض هذه الجردان تتخذ سمتها حتى الصدر والقدمين الأماميتين، وتأخذ في الحركة في حين أن بقية الجسم لم يتشكل بعد، وما يزال طين الأرض باقياً فيه على حالته الطبيعية. ومن هذا يتضح أنه في البدء عندما تكوّن العالم وصار مناخ الأرض معتدلاً، كان نشوء الإنسان لا بد في أرض مصر، لأن سائر أنحاء المعمورة في الحقيقة لا تخرج الآن في أى مكان منها واحدة من أمثال هذه الكائنات الحية. ففي مصر وحدها يمكن أن ترى بعض المخلوقات في طريقها إلى الحياة على هذا النحو غير المألوف. وبالجملة، فهم يقولون إنه إذا كان أكثر الكائنات الحية قد هلك في الطوفان الذي حدث في عهد ديوكاليون فمن الجائز أن يكون سكان مصر الجنوبية قد نجوا، لأن هذه البلاد عديمة الأمطار في

(١) الكورسيون هو درنة النيلوفر الهندي *Nymphaea stellata* الذي ينبت على ضفاف النيل.

الغالب. أما إذا كان كان الهلاك عاما - كما يؤكد البعض - وكانت الأرض قد أنجبت من جديد أنواعا حديثة من الأحياء، فإنه - حتى على هذا الفرض - يكون مبدأ ظهور الكائنات الحية أخرى بهذه البلاد، ذلك أنه عندما اقترنت الأمطار الغزيرة التي هطلت على جميع الأنحاء، بالحرارة التي تسود مصر، أصبح المناخ في غالب الظن شديد الملاءمة لخلق جميع الكائنات الحية من جديد. وحتى في أيامنا هذه، قد يرى المرء في آخر موسم الفيضان بعض الأنواع من المخلوقات في حالة نشوء واضحة في جميع أنحاء مصر التي تغمرها مياه الفيضان، ذلك أنه عندما تنحسر مياه النهر وتجفف الشمس حواف الطين تنشأ الحيوانات فيما يقولون، فيكون بعضها تام التكوين، في حين أن البعض الآخر لا يزال في طريق التكوين ملتصقا بالأرض ذاتها.

ومهما يكن من شيء، فإنه عندما تأمل سكان مصر الأول في الكون وفي طبيعة العالم، ملئوا دهشة وإعجابا، وتصوروا أن هناك إلهين أبديين أزليين هما الشمس والقمر، يسمى أولهما أوزيريس وثانيهما إيزيس ويمكن شرح كلا هذين الاسمين بالرجوع إلى اشتقاقهما. فكلما أوزيريس، إذا ترجمت إلى اليونانية كان معناها «كثير الأعين» والسبب في هذه التسمية واضح. ذلك أنه لما كانت الشمس ترسل أشعتها في كل مكان فكانها ترى الأرض كلها والبحر بأسره بعيون كثيرة. ويتفق قول الشاعر^(١) مع ما ذكرنا.

«الشمس التي تطلع على كل شيء، وتسمع كل شيء».

(١) الشاعر يعني هوميروس، والبيت من الأوديسية ١٢، ٣٢٣.

ويطلق بعض كتاب الأساطير القدماء عند الإغريق على أوزيريس اسم ديونيسوس Dionysus وقد يحرفون الاسم إلى سيريوس Sirion ومن بين هؤلاء يومولبوس^(١) Eumolpus إذ يقول في قصيدته في مدح باخوس Bacchus

«ديونيسوس لماع كالنجم، نارى الضوء».

وأورفيوس Orpheus حين يقول

«ولهذا يدعوه الناس فانيس^(٢) وديونيسوس»

ويقول البعض إن العبادة المتخذة من جلد الغزال التى يرتديها ترجع إلى السماء الموشاة بالنجوم. أما اسم إيزيس فلو ترجم كان معناه «القديمة» ومصدر هذه التسمية ميلادها الأبدى الأزلى. أما القرنان اللذان يوضعان فوق رأسها فيرجعان إلى المظهر الذى تبدو فيه حينما يكون القمر هلالا، وإلى البقرة التى تقدر باسمها عند المصريين. ويؤمن المصريون بأن هذين الإلهين يهيمنان على الكون بأجمعه، وبهيئان الحياة والنماء لكل شىء بوساطة فصول ثلاثة هى الربيع والصيف والشتاء، تتم دورتها فى اطراد غير ملحوظ. ومع أن هذه الفصول الثلاثة تختلف فى طبيعتها اختلافا بينا إلا أنها تتم السنة فى انسجام تام. وهذان الإلهان يهبان أعظم القوى الطبيعية لخلق الكائنات الحية، فالإله يبعث قوى الحرارة والروح، والإلهة تبعث قوى الرطوبة والجفاف

(١) الاسم يعنى فى اليونانية «الغنى المجيد» والمأثور أنه منشىء الأسرار الإليوسية.

(٢) فانيس Phanes رب يرمز فى الطقوس الأورفية إلى جوهر الحياة. وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها هذا الاسم فى الأدب القديم.

وكلاهما يبعثان قوى الهواء، وهذه العناصر تنشىء كل شىء وتنميه. ومن ثم فإن الشمس والقمر ليسا سبب بلوغ هيكل العالم الطبيعي بأجمعه حد الكمال فحسب، بل إن هيكل العالم كله كذلك - فيما يدعون - يتكون من تلك العناصر الخمسة، وهى عنصر الروح والحرارة والجفاف والرطوبة وآخرها الهواء، نعددها كما نعدد فى جسم الإنسان الرأس واليدين والرجلين وسائر الأعضاء.

❧ واعتبر المصريون الأوائل الذين كانوا يتكلمون لساناً مبيئاً كلاً من هذه العناصر إلهاً أطلقوا عليه اسماً خاصاً مناسباً لطبيعته، وهكذا أطلقوا على الروح اسماً نترجمه بزيوس، ولما رأوا أنه أصل عنصر الحياة فى الكائنات الحية نظروا إليه كما لو كان أباً لجميع الكائنات. وهم يقولون إن أشهر شعراء اليونانيين يتفق معهم فى هذا الاعتقاد حينما يشير إلى هذا الإله قائلاً.

«أبو الناس والآلهة جميعاً»^(١)

وأطلقوا على النار اسماً نترجمه بهفايستوس، فقد اعتبروه إلهاً عظيماً ذا فائدة جلى لكل شىء فى الإنتاج والنمو التام واعتبروا الأرض أشبه شىء بالرحم لكل ما ينبت وأطلقوا عليها اسم «الأم» meter ويقرب من ذلك أن اليونانيين أطلقوا على الأرض اسم ديميتير demeter، وقد حرّفت هذه الكلمة قليلاً على مرّ الأيام فقد كان اسمها فى غابر الأزمان جيميتير gemeter «أما الأرض» ويشهد بذلك أورفيوس فى قوله:

«الأرض أم جميع الأشياء، واهبة الغنى والنماء»

(١) هوميروس، الإلياذة ٨، ٤٩، والتعبير شائع فى الملحمتين.

أما عن عنصر الرطوبة فيقال إن القدماء أطلقوا عليه اسم أوقيانيس ومعناه «الأم الرؤوم» ولكن بعض اليونانيين يرون أن الاسم في الأصل كان أوقيانوس: ويقول عنه الشاعر

«أوقيانوس مصدر الآلهة مع الأم تيثيس»^(١)

ذلك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هو نهر النيل عندهم وأن الآلهة نشأت على حافته، ومصر هي البلد الوحيد في العالم كله الذي توجد فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء كزيوس zeus وهليوس helius وهرمس hermes وأبلو apollo وبان pan وإيليثويا eileithuia وكثيرين غيرهم^(٢). أما عن الهواء فيقال إنهم أطلقوا عليه اسماً يقابله في اليونانية أثينا athena وانهم اعتبروا أثينا ابنة لزيوس، وتصورها عذراء لأن الهواء في حالته الطبيعية نقي ويشغل المحل الأرفع من العالم بأسره، ومن هنا جاء في الأساطير أنها خلقت من رأس زيوس. وترجع تسميتها بتريتوجينيا tritogeneia «الثالوثية المولد» إلى أنها تغير طبيعتها ثلاث مرات في السنة، في الربيع والصيف والشتاء. وقد أطلقوا عليها أيضاً اسم جلاوكوبيس glaucopis^(٣) وليس ذلك لأنها - كما يتوهم بعض اليونانيين - زرقاء العينين، فذلك في الحقيقة تليل سخيف، بل لأن الهواء يبدو في مظهره أزرق اللون. ويقولون إن هذه

(١) هوميروس، الإلياذة ٨، ٣٠٢ تيثيس tethys هي زوج أوقيانوس.

(٢) عندما زار ديودور مصر كان كثير من البلاد يحمل اسماً يونانياً مثل ديوسبوليس وهليوبوليس وهرمبوليس وأبوللينوبوليس وبانوبوليس وغيرها.

(٣) هذه الكنية تترجم عادة في هوميروس «لماعة العين»

الآلهة الآنفة الذكر تطوف حول العالم كله وتتجلى للناس أحياناً في شكل حيوانات مقدسة، وتتخذ أحياناً أخرى مظهر الإنسان أو هيئة سائر المخلوقات. وهم يقولون إن هذا ليس حديث خرافة، بل إنه ممكن الحدوث لأن هذه الآلهة هي في الواقع خالقة كل شيء. ولما زار الشاعر مصر وسمع هذا القصص من الكهنة، أورد الرواية السالفة في موضوع ما من شعره كما لو كانت حقيقة واقعة فقال:

«وكذلك الآلهة، في صورة أغراب من بلاد أجنبية»

«يتخذون مختلف الأشكال ويهيمون بين المدن»

«مطلعين على صلف الناس وبرهم سواء»^(١)

هذا مثل مما يرويه المصريون عن آلهة السماء التي تتمتع بالخلد.

ويقول المصريون إن مخلوقات أرضية ولدت من هذه الآلهة، **٧٣** وأنها كانت في الأصل فانية ولكنها لحكمتها ولما أسدته للإنسانية قاطبة من خير قد حظيت بالخلود. وأن بعضهم حكموا مصر، وقد اتخذ بعض هؤلاء لأنفسهم ألقاباً مطابقة لألقاب الآلهة السماوية في اللغة المصرية، في حين اتخذ البعض الآخر أسماء شخصية مثل هليوس helios وكرونوس kronos وريا reha وكذلك زيوس zeus الذي يسمه البعض أمونا، وأصف إلى من سبق هيرا herha وهيفايستوس hephaestus وكذلك هستيا hestia وأخيراً هرمس hermes. وهم يقولون إن هليوس «الشمس» الذي يحمل نفس اسم الجرم السماوي كان أول ملوك مصر. إلا أن بعض الكهنة يذهب إلى أن هيفايستوس كان أول ملوك مصر،

(١) هوميروس: الأوديسية ١٧، ٤٨٥، ٤٨٧ -

ذلك بأنه اكتشف النار، فارتقى الملك من أجل هذه المأثرة. فقد حدث أن أصابت صاعقة شجرة على التلال، وأخذت الغابة المجاورة تترقق، فيم هيفايستوس شطرها، ولما كان الفصل شتاء فقد سرَّ بالنار سروراً عظيماً، ولكن لما خبت النار، طفق على الدوام يطعمها وقوداً، وفيما هو مُبقي النار مشتعلة على هذا النحو، استدعى سائر الناس ليشهدوا ما نتج عنها من خير وبركة.

وتلاه في الحكم كرونوس الذي تزوج من أخته ريا وأنجب في رواية البعض أوزيريس وإيزيس، ولكن أكثر الناس يقولون إنه أنجب زيوس وهيرا اللذين حكما العالم بأسره لما أسديا من فضل وخير، وولد لهما خمسة آلهة كل واحد منهم في يوم من أيام النسيء الخمسة في السنة المصرية، وأسماء هذه الآلهة التي ولدت هي أوزيريس وإيزيس وطيفون typhon وأبوللو وأفروديتى aphrodite. وأوزيريس لو ترجم إلى اليونانية كان ديونيسوس وإيزيس قريبة الشبه جداً من ديميتير، وقد تزوج منها أوزيريس، ولما ولي الملك بذل جهده في تحسين حال بنى الإنسان.

١٤ وأول عمل قاما به هو منع الجنس البشري من أكل بعضهم بعضاً. وكشفت إيزيس عن غلة القمح، والشعير، وقد كانا ينموان من قبل في الحقول مع سائر النباتات كيفما اتفق ولكن الإنسان لم يكن قد فطن إليهما بعد، أما أوزيريس فابتكر زراعة هذه الحبوب، وعندئذ غير الناس جميعاً طعامهم عن رضاء لمل وجدوا من لذة في طبيعة هذه النباتات التي كشقوا عنها، وكذلك لما بدا لهم من أنه من الأفضل

أن يقلعوا عن العنف والقسوة فيما بينهم. وللتدليل على كشف الغلال المذكورة يشير المصريون إلى التقليد المرعى بينهم من قديم الزمان، فحتى في وقتنا هذا يجمع الرجال في وقت الحصاد من بواكير سنابل القمح ويقفون إلى جانبها ضاربين بين صدورهم ومنادين باسم إيزيس. وهكذا يكرمون الآلهة لما قدمت لهم وما كشفت لهم في أول الأمر. وفي بعض المدن تحمل في عيد إيزيس سوق نبات القمح والشعير مع غيرها من الأشياء في الموكب إحياء لذكرى هذه الاستكشافات التي كشفت عنها الآلهة في البدء ببراعة. وإيزيس قد سنت أيضاً - فيما يقولون - القوانين التي تعامل الناس بمقتضاها فيما بينهم بالعدل وكفوا بموجبها عن استعمال القوة دون وجه حق وعن التناول خوفاً من العقاب. ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يسمون ديميتير المقننة معترفين بذلك بأن الفضل يرجع إليها في أن استقرت لديهم القوانين أول الأمر.

١٥ وأسس أشياع أوزيريس - فيما يقال - مدينة ذات مائة باب في إقليم طيبة المصري، وقد أطلقوا عليها اسم أمه، ولكن بعض الأجيال المتأخرة أطلق عليها اسم ديوسبوليس «مدينة زيوس» وأسماها البعض الآخر طيبة. وتأسس هذه المدينة ليس موضوع خلاف بين المؤرخين فحسب، بل بين كهنة المصريين أنفسهم، إذ يؤكد الكثيرون أن أشياع أوزيريس لم يؤسسوا مدينة طيبة، وإنما أسسها أحد الملوك^(١) بعد ذلك التاريخ بزمان طويل. وسنورد تاريخ عصره في المكان المناسب. وتمجيذا لوالديهما زيوس وهيرا أقيم معبد امتاز بضخامته وباهظ تكاليفه، له

(١) جاء في الفصل الخامس والأربعين أن مؤسسها هو بوسيريس

محرابان ذهبيان، أما أكبرهما فلزيوس السماوى، وأما أصغرهما فلابيهما زيوس الذى تولى ملك مصر ويدعوه البعض آمون.

أما الآلهة الآخر الذين سبق ذكرهم فقد أقيمت لهم محاريب من ذهب ورتبت لكل منهم طقوس، ونصب كهنة للقيام عليها. وكما كان الحال مع أوزيريس وإيزيس كذلك رتبت شعائر للآلهة التى ابتكرت الحرف والصناعات، أو اخترعت شيئاً نافعاً. ومن ثم فإنه بعد اكتشاف مناجم النحاس والذهب فى إقليم طيبة، صنعت الأدوات التى استخدمها الناس فى قتل الحيوانات المفترسة، وفلاحة الأرض وفى التنافس فيما بينهم فى تمدين بلادهم، وإقامة التماثيل والمحاريب الذهبية الباهرة للآلهة. وكان أوزيريس محباً للفلاحة أيضاً فقد ربي كابن لزيوس فى نيسا nysa فى بلاد اليمن بالقرب من مصر. ولذلك يسمى عند اليونانيين ديونيسوس وهو لفظ مشتق من اسم أبيه ومن اسم هذه البلدة. ويحدثنا هوميروس فى أناشيده عن نيسا باعتبار أنها تقع بالقرب من مصر وذلك حيث يقول:

«وهناك نيسا، جبل عال، كثيف الغابات»

«مبعدة فى فينيقية، وقريبة من جداول مصر»^(١)

ويقولون إن أوزيريس وجد الكرم بالقرب من نيسا، وكذلك اكتشف طريقة عصر ثماره، فكان أول من ذاق النبيذ وأول من علم الناس كافة غرس الكرم، واستخراج النبيذ، وقطف العنب وخرن النبيذ، وقد لاقى هرمس على يديه تكريماً خاصاً دون سائر الآلهة لما أوتى من موهبة فذة فى استنباط ما عساه أن يكون ذا نفع فى حياة الناس جميعاً.

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨ - ٩

١٢٦ ويرجع إلى هرمس الفضل في الحقيقة في تقويم لغة الإنسان، وفي أن أشياء كثيرة وضعت لها أسماء بعد أن لم يكن لها اسم إلى ذلك الحين. وهو الذي ابتكر الحروف الهجائية، ونظم شعائر العبادة، وتقديم القرابين للآلهة وكان أول من فطن إلى أفلاك النجوم، وطبيعة الأصوات وانسجامها، وأنشأ حلبة المصارعة وعنى برشاقة حركات الجسم وسلامة تكوينه، وصنع قيثاره ذات ثلاثة أوتار، كل يقابل فصلاً من فصول السنة، لأنه تخيل ثلاث درجات للصوت، الدرجة العالية والمنخفضة والمتوسطة، فالعالية تقابل الصيف، والمنخفضة الشتاء، والمتوسطة الربيع، وعلم اليونانيين ترجمة اللغات، ولذلك سمّوه هرمس «المرجم» وبالجملة، فإن أشياع أوزيريس اتخذوا من هرمس كاتباً مقدساً، وأطلعوه على جميع أسرارهم، واتبعوا على الأخص مشورته، وهو الذي اهتدى إلى شجرة الزيتون وليست أثينا كما يزعم اليونانيون.

١٢٧ ولما كان أوزيريس محباً للخير تواقاً إلى المعالي فقد عبأ - فيما يقال - جمعاً غفيراً لأنه عقد العزم على أن يجوب العالم كله ليعلم الجنس البشري غرس الكرم، وبذر حبوب القمح والشعير، فقد اعتقد أنه إن يجعل الناس يقلعون عن همجيتهم، ويأخذون نصيبهم من حياة التمدن، يحظ بالخلود جزاء ما أسداه من خير عميم، وهذا ما حدث فعلاً. فلم يقتصر الشكر على أولئك الذين نالوا نصيبهم من هذا الخير وقت كشفه، بل إن الأجيال التالية كذلك ما زالت - عرفاناً لمنيعة هذه الآلهة في كشف هذا الغذاء الجديد - تقدسهم كألهة متجلية لا ريب فيها.

وبعد أن نظم أوزيريس الأمور في مصر، سلّم مقاليد الحكم كله -فيما يقال- لزوجته إيزيس، ونصب هرمس مستشاراً لها، لأنه بز جميع أصدقائهما في السياسة والحكمة، ووكل إلى هرقل heracles قيادة الجيوش في جميع أركان المملكة، لأنه يمت إليه بصلة القرابة، ولأنه كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وقوته، ونصب حاكمين يشرف أحدهما وهو بوسيريس bousiris على المناطق التي تنحدر نحو فينيقية وساحل البحر، ويشرف الآخر وهو أنطايوس antaeus على الأقاليم المجاورة للحبشة وليبيا. أما هو فغادر مصر على رأس جيشه ليقوم بحملته ومعه أخوه الذي يدعوه اليونانيون أبوللو. وأبوللو هذا هو الذي اكتشف فيما يقال شجرة الغار الذي يتوج به الناس جميعاً تماثيل هذا الإله على التخصيص. ويعزى إلى أوزيريس اكتشاف اللبلاب الذي يعتبر مقدساً له كما يقدهه اليونانيون لديونيسوس، ويقولون إن اللبلاب يعرف في اللغة المصرية بنبات أوزيريس وهو يفضل الكرم عند تقديم القران، وذلك لأن الكرم يسقط أوراقه بينما اللبلاب يحتفظ بخضرتة على الدوام. ولقد كان هذا رأى الأقدمين فيما يتعلق بسائر النباتات الدائمة الأخضرار، فقد قدسوا الآس لأفروديت والغار لأبوللو.

وعلی ای حال، فقد خرج -فيما يقال- مع أوزيريس في حملته هذه ولداه أنوبيس anubis ومقدون macedon اللذان امتازا بالبسالة، وحمل كلاهما معدات تسترعى الأنظار، اتُّخِذت من حيوانات تتناسب جراتها مع شجاعتهما، فقد اتخذ أنوبيس خوذته من جلد

الكلب، أما مقدون فقد اتخذ قناعاً يشبه وجه الذئب. ولهذا بُجِّلَت هذه الحيوانات عند المصريين. وصحب أوزيريس أيضاً في هذه الحملة بان pan الذى بالغ المصريون فى عبادته، فلم يُقَم له الوطنيون التماثيل فى كل معبد فحسب بل أنشأوا باسمه مدينة فى إقليم طيبة دعاها الوطنيون خِمو chemmo ومعناها لو ترجمت إلى اليونانية «مدينة بان». ورافقه كذلك ممن لهم خبرة بشئون الفلاحة مارون maron لمهارته فى غرس الكرم، وتريبتوليموس triptolemus لكفايته فى بذر القمح وسائر عمليات حصاده، ولما أعد كل شىء بدأ أوزيريس رحلته مخترقا الحبشة. بعد أن نذر للآلهة أن يرسل شعره إلى أن يعود إلى مصر. وهذا هو السبب فى أن سنة إطلاق الشعر قد انتشرت فى مصر إلى عصر متأخر، وفى أن الذين يسافرون إلى الخارج يطلقون شعورهم إلى أن يعودوا ثانية إلى بلادهم. وبينما كان أوزيريس فى الحبشة، قدموا له - فيما يقال - طائفة الساتيرين satyri ذوى الحقاء المشعرة. لأن أوزيريس كان محباً للمرح ومولعاً بالموسيقى والرقص. ولهذا السبب نفسه رافقه فى رحلته جمع غفير من المنشدين بينهم تسع غانيات يجدن الغناء وسائر الفنون وهن اللاتى يدعوهن اليونانيون موزاى musae «ربان الفنون»، وكان على رأسهن أبوللو ومن هنا سُمى «رائد ربات الفنون» موزيجيتيس musigetes، وقد استصحب فى حملته أيضاً الساتيرين لمهارتهم فى الرقص والغناء وبراعتهم فى جميع فنون التسلية واللهو، لأن أوزيريس لم يكن محارباً، ولم يحشد جنده للمواقع والأخطار، إذ تقبلته جميع

الشعوب إلهاً عن رضا لما حباها من نعم، وفي الحبشة علم الناس شئون
 الفلاحة وأنشأ مدناً جديدة بالذکر وترك وراءه رجالا يشرفون على شئون
 البلاد ويجمعون الخراج.

١٦٩ ويحكى أنه بينما كان هؤلاء في شاغل من أمر رحلتهم فاض
 النيل على جانبيه إبّان ظهور الشعرى اليمانية، وهو الوقت الذي يرتفع
 فيه النهر عادة، وأغرق مساحة عظيمة من أرض مصر وبخاصة المنطقة
 التي تقع تحت إشراف بروميثيوس Prometheus، وكاد بروميثيوس
 أن يبجع نفسه لفرط حزنه لأن كل من كانوا في تلك المنطقة هلكوا
 على بكرة أبيهم. وأطلق على النهر اسم النسر aetus لسرعة تياره وشدة
 تدفقه. ولما كان هرقل رجلاً شهماً تَوَاقاً إلى الفتوة، فقد سد الثغرة
 بسرعة، وأعاد النهر إلى مجراه الأصلي، ولقد جعل شعراء اليونانيين
 من هذه الحادثة أسطورة بأن قالوا إن هرقل قتل النسر الذي كان ينهش
 كبد بروميثيوس. وأقدم اسم عرف لنهر النيل هو أوقيانيس ويترجم إلى
 اليونانية بأوقيانوس، ويقال إنه سمي نسرًا لما حدث من فيضان. وقد
 أطلق عليه فيما بعد اسم إيجيبتوس aegyptus نسبة إلى ملك قديم من
 ملوك البلاد ويشهد الشاعر على صحة ذلك في قوله:

«وأرسيت سفنى المقوسة فى نهر إيجيبتوس»^(١)

ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس thonis، وقد
 كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم. أما آخر اسم للنهر

(١) هوميروس: الأوديسية ١٤، ٢٥٨٠.

وهو ما يعرف به الآن فقد اشتق من اسم الملك نيلوس nilus. وعلى
 أى حال، لما وصل أوزيريس إلى تخوم الحبشة ضبط مياه النهر بإقامة
 السدود على جانبيه حتى لا تطغى المياه على الأرض وقت الفيضان
 أكثر مما ينبغي. وأقام فتحات تنساب المياه منها فى رفق بمقدار، كلما
 دعت الحاجة. ثم واصل سيره بمحاذاة ساحل البحر الأحمر^(١) مخترقاً
 بلاد العرب حتى وصل إلى الهند وأقاصى المعمورة. وفى الهند أنشأ
 مدناً ليست بالقليلة، أطلق على إحداها اسم نيسا، فقد أراد أن يخلف
 هناك ما يخلد ذكرى البلدة التى نشأ فيها بالقرب من مصر. وأدخل
 فى نيسا من أعماق الهند زراعة اللبلاب، وهذه هى المنطقة الوحيدة
 فى الهند كلها وما يجاورها من البلاد التى ينمو فيها هذا النبات إلى
 اليوم. ثم خلف وراءه فى طول البلاد وعرضها شواهد كثيرة أخرى على
 إقامته، مما حمل الأجيال التالية من الهنود على التلاحى بشأن هذا
 الإله، مدعين أنه هندي الأصل.

❦ واشتغل أوزيريس كذلك بصيد الفيلة وترك وراءه فى كل
 مكان شواهد تشير إلى حملته الخاصة هذه، ثم اخترق سائر القبائل
 الآسيوية حتى عبر الدردنيل فى طريقه إلى أوروبا. وفى تراقيا قتل
 ليكرجوس lycurgus ملك البرابرة لأنه وقف فى وجه مشروعاته، وترك
 وراءه مارون وقد صار إذ ذاك كهلاً، ليشرف على ما غرس من نباتات
 (١) البحر الأحمر عند اليونانيين الأقدمين يعنى البحر الأحمر كما نعرفه الآن والمحيط
 الهندي والخليج الفارسي

فى تلك البلاد، وأوعز إليه أن يبتنى مدينة باسمه وهى التى تدعى مارونيه maronea وترك من بعده ابنه مقدون ملكاً على البلاد التى سميت باسمه مقدونيا وعهد إلى تربتوليموس العناية بشئون الفلاحه فى أتيكا، وأخيراً وبعد أن جاب كل أنحاء المعمورة، حبا البشر بنعمة الحبوب السهلة الزراعة والوفيرة الإنتاج، وعلم سكان المناطق غير الصالحة لزراعة الكرم صنع شراب مستخرج من الشعير^(١) ولكنه لا يقل كثيراً عن النبيذ نكهة وقوة. وعند عودته إلى مصر جلب معه من جميع البلاد أحسن الهدايا، وقد رفعه الجميع بلا استثناء لعظم نفحاته إلى مرتبة الخلود، وقدموه كما يقدمون أرباب السماوات، ولما رفع من بين الناس إلى مصاف الآلهة، رتبت له إيزيس وهرمس الأضحى وسائر آيات التكريم، وأقاما له شعائر، واستحثا كثيراً من الطقوس السرية تمجيداً لعظمته وقوته.

وبالرغم من أن الكهنة قد احتفظوا من قديم الزمان بقصة موت أوزيريس فى طى الكتمان، إلا أنه بتراخى الزمان أظهر بعضهم العامة على هذا السر. وأوزيريس فيما يقولون كان ملك مصر الشرعى، وقتله أخوة تيفون وقد كان قوياً فاجراً، وبعد أن مزق جثته إلى ستة وعشرين جزءاً أعطى كل واحد من حلفائه جزءاً. لأنه أراد أن يشركهم جميعاً فى هذا الجرم، وظن أنه يجعل منهم بذلك أعواناً وحراساً أقوىاء لعرشه. ولكن إيزيس أخت أوزيريس وزوجه ثارت لمقتله بمساعدة ابنها

(١) ورد ذكر الجعة المصرية فى الفصل الرابع والثلاثين باسم زيتوس

حورس horus وقضت على تيفون وشركائه، واستولت على عرش مصر، وقد نشبت الموقعة بينهم على شاطئ النهر بجوار تلك القرية التي تعرف الآن باسم أنطايوس antaeus. وهى تقع فيما يقال تجاه بلاد العرب. وقد اشتق اسم هذه القرية من اسم أنطايوس^(١) الذى كان معاصراً لأوزيريس وقد نال عقابه على يدى هرقل. ومهما يكن من شىء، فقد وجدت إيزيس جميع أجزاء الجثة ما عدا السوءة. ولما كانت ترغب فى أن تخفى قبر زوجها، وأن تجعله فى الوقت نفسه موضع التقديس من جميع سكان مصر، فقد أنفذت رغبتها هذه على النهج التالى: يحكى أنها صبعت تمثالا من الشمع والطور قريب الشبه من أوزيريس وفى حجمه، حول كل جزء من أجزاء الجسم، ثم استدعت الكهنة فئة بعد فئة وأخذت عليهم جميعاً العهد على أن لا يبوحوا لأحد ما بما أوتمنوا عليه من سر، ثم قالت لكل فئة منهم على حدة أنها وكلت إليها أمر دفن الجثة، وجعلت تذكر كل فئة بالنعمة التى أسداها أوزيريس، ودعتهم إلى دفن الجثة فى حرمهم الخاص بهم، وحضتهم على تقديسه كإله، وعلى تقديس أحد الحيوانات - أيا اختاروا - باسمه، على أن يقدس الحيوان طالما كان على قيد الحياة، كما كانوا يقدسون أوزيريس من قبل، فإذا نفق، عدُّ جديراً بأنث يدفن كما دفن أوزيريس. ولما كانت إيزيس تحرص على أن تدفع الكهنة إلى الاستمسك بهذه التشريعات بدافع من مصلحتهم الذاتية، فقد أعطتهم ثلث الأراضى المصرية فى

(١) فى الأساطير أنه ابن البحر والأرض، وكان يستمد قوته من أمه الأرض بملامسة قدمه لها، ولم يستطع هرقل أن يغلبه إلا بعد أن رفعه فى الهواء.

مقابل قيامهم بعبادة الآلهة وخدمتها. أما الكهنة، فعرفنا منهم بأنعم أوزيريس على حد قولهم، وحرصاً منهم على إرضاء إيزيس، ويحفزهم فوق ذلك دافع من المصلحة الذاتية، فقد قاموا بجميع ما أوحى به إيزيس. وذلك هو السبب في أن كل جماعة من الكهنة تعتقد إلى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرائهم. ولا زالوا يقصدون الحيوانات التي خصصت له من قديم الزمان، وعند موتها يستأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها، وخصص له العجلان المقدسان اللذان يسمى أحدهما أبيس apis، ويسمى الآخر منيفيس mnevis، وفرضت عبادتهما كأنهما إلهان على جميع المصريين على السواء. وذلك لأن نفع هذه الحيوانات عظيم للغاية لمكتشفى الحبوب عند بذر الحب وفي سائر العمليات الزراعية ذات المنفعة العامة.

ويقال إن إيزيس أقسمت بعد موت زوجها ألا تتخذ لها بعلاً مرة أخرى، وقد ظلت إلى آخر أيامها تحكم مصر بالقسطاس المستقيم حتى بزت الجميع في البر برعيتها. ولما انتقلت بدورها من بين البشر، وضعت في مصاف الخالدين، ودفنت بمنفيس حيث يرى ضريحها إلى وقتنا هذا قائماً في حرم معبد هيفايستوس. ولكن يقول البعض أن جسد هذين الإلهين ليسا في منفيس بل يرقدان على الحدود بين الحبشة ومصر في جزيرة في النيل بالقرب من الموضع الذي يقال له فيلاي philae ويطلق على هذه الجزيرة اسم «السهل المقدس» لذلك السبب. ويستشهدون على صحة دعواهم هذه بقبر أوزيريس الذي يقده

كهنة مصر أجمعين والذي ما يزال قائماً في هذه الجزيرة تحيط به
 ثلاثمائة وستون جرة يملأها الكهنة الموكلون بهذا الأمر لبنا كل يوم
 باسمى هذين الإلهين. ومن أجل هذا حرم دخول هذه الجزيرة على
 الغرباء. ويعتبر كل سكان إقليم طيبة وهو أقدم الأقاليم المصرية، القَسَم
 بأوزيريس الراقد فى فيلاى أغلظ الأيمان. ويقال إن أعضاء أوزيريس
 التى عثر عليها قد دفنت كما يليق بها بالطريقة التى ذكرنا. ولكن
 إيزيس رأت أن سوءته - وقد ألقى بها تيفون فى النهر على حد قولهم
 لأن جميع أشياعه أبوا أن يقبلوها - أهل للتقديس مثل سائر الأعضاء.
 فأقامت لها صورة فى المعابد واختصتها بالتبجيل، وجعلت تلك الصورة
 أثناء الطقوس السرية وتقديم الضحايا لذلك الإله، محلاً لأبلغ التبجيل
 وأوفر التقديس. ولذلك يقدره اليونانيون الذين أخذوا عن مصر الشعائر
 السرية وعبادة ديونيسوس فى طقوسهم الخفية وشعائرهم السرية وعند
 تقديم الأضاحى لهذا الإله، وهم يسمون هذا العضو فاللوس phallus.

❧ وانقضى - فيما يقال - بين عهد أوزيريس وإيزيس وبين
 حكم الإسكندر - الذى أنشأ فى مصر المدينة التى تسمى باسمه - أكثر
 من عشرة آلاف سنة. ولو أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الفترة بين
 هذين العهدين تقل قليلاً عن ثلاثة وعشرين ألف سنة. ويقولون إن الذين
 يزعمون أن أوزيريس هو ابن زيوس وسميلى semele، وقد ولد لهما فى
 طيبة من أعمال بيوشيا، يلقون القول على عواهنه. ذلك بأنه عند ما زار
 أورفيوس orpheus مصر، اشترك فى الشعائر الخفية والطقوس السرية

لديونيوسوس. ولما كان أورفيوس صديقاً لبني قادموس، مكرماً بينهم، فقد حرف قصة ميلاد ديونيوسوس سعياً في مرضاتهم، وتقبل الدهماء هذه الشعائر الخفية والطقوس السرية راضين، لجهلهم بالحقيقة من ناحية، ولأنهم أحبوا أن يعتبر الإله يونانياً من ناحية أخرى. وقد لجأ أورفيوس إلى المعاذير في تحريفه للرواية الخاصة بمولد الإله وتغييره الطقوس الخفية. فقد كان من بين أبناء قادموس الذي ولد في طيبة من أعمال مصر، ابنة تدعى سميلي اغتصبها رجل غير معروف فحملت منه، وبعد انقضاء سبعة أشهر، ولدت طفلاً اعتقد المصريون أن طلعتة تشبه طلعة أوزيريس. ومثل هؤلاء الأطفال لا يولدون عادة أحياء، إما لأن الآلهة لا ترضى بذلك، أو لعلها الطبيعة لا تسمح به. ولما أدرك قادموس ما حدث، وكان قد أوحى إليه أن يحيى شعائر آبائه، غطى الطفل الرضيع بوشاح من ذهب، وقرب إليه الأضاحي التي تناسب مقامه كما لو كان أوزيريس قد تجلى للناس. وكذلك ألحق أبوه الطفل بزيوس، تمجيحاً لأوزيريس ومحوً للعار الذي لحق بابنته التي هُتكت عرضها. وفي العصور المتأخرة أصبح أورفيوس، الذي ذاعت شهرته العظيمة بين اليونانيين، لجودة إنشاده وطقوسه السرية وقصصه عن الآلهة، صديقاً حميماً لبني قادموس، ولقى في طيبة تقديساً فائق الحد، وبعد أن وقف على عقائد المصريين الدينية، نقل مولد الإله القديم إلى عصر متأخر، وأنشأ إرضاء لبني قادموس طقساً جديداً يبشر فيه المريدين بأن ديونيوسوس هو ابن زيوس وسميلي. أما جمهرة الناس

فقد خدعوا تماماً إما لجهلهم بالحقيقة أو لاعتقادهم أن أورفيوس أهل للثقة وعارف بهذه الأمور، وتقبل أكثر الناس بسرور الرأي القائل بأن الإله يوناني كما ذكرت آنفاً، وتمسكوا بمناسك عبادته. وبعدئذ تناول القصاص والشعراء قصة ميلاد هذا الإله وملأوا بها المسارح فأصبحت عقيدة راسخة لا تتغير لدى الناس على مر الدهور.

وبالجملة، **٢٤** فالمصريون يقولون إن اليونانيين ينحلون لأنفسهم أشهر الأبطال والآلهة بل ومستعمرات المصريين. فهرقل مثلاً وهو مصرى الأصل استعان بقوته في جوب مساحة شاسعة من المعمورة وأقام نصباً على حدود ليبيا. ويحاول المصريون أن يجدوا في القصص اليوناني أدلة على صحة هذه الدعوى، فبينما يجمع الناس قاطبة على أن هرقل بذل المعونة لآلهة أوليمبوس في حربهم ضد المردة، يقول المصريون إنه من غير الممكن إطلاقاً أن تخرج الأرض المردة في الوقت الذى يقول اليونانيون إن هرقل ولد فيه أى في الجيل السابق لحرب طروادة^(١)، بل يرجع المصريون أنفسهم أن يكون ذلك قد حدث في بدء الخليقة، ويقع ذلك في حسابهم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، فى حين أنه قد مضى على حرب طروادة أقل من مائتين وألف سنة. هذا إلى أن الهراوة وجلد السبع يناسبان هرقل إذا تخيلناه فى ذلك العصر القديم، ففى ذاك العصر لم تكن الأسلحة قد عرفت بعد وكان الناس يدافعون عن أنفسهم بالهراوة ضد أعدائهم، ويتخذون من جلود الحيوانات دروعاً واقية. ويقول المصريون إن هرقل بن زيوس ولكنهم يقولون إنهم

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨، ٩-

لا يعرفون من أمر أمه شيئاً. أما ابن الكميني alcemene فقد ولد بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشرة آلاف سنة وسمى عند مولده ألكيوس^(١) alcaeus ثم غير الاسم بعد ذلك إلى هرقل، لا لأنه اكتسب شهرته عن طريق هيرا كما يقول ماتريس matris^(٢) بل لأنه قلد هرقل القديم في أسلوب حياته فورث شهرته واسمه. وتتفق أقوالهم مع ما أثر عند اليونانيين من قديم الزمان من أن هرقل طهر الأرض من الوحوش الضاربة، وهي دعوى لا يمكن أن تلحق بحال ما يبطل ولد حوالى عصر الحروب الطروادية، حين كان الجزء الأكبر من المعمورة قد تحضر وانتشرت فيه الزراعة وأنشئت المدن وانتشر السكان فى كل مكان. وعلى ذلك فإن دعوى تمدين العالم أحرى بأن تلحق بهرقل الذى عاش فى العصور القديمة حين كان لجموع الحيوانات المقترسة الغلبة على الإنسان وخصوصاً فى مصر فى صعيدها الذى ما زال إلى وقتنا هذا يبدأ يعمرها الحيوان المتوحش. ومن المعقول أن هرقل حينما استرعت هذه المنطقة انتباهه - وهى مسقط رأسه - طهرها من الحيوانات المقترسة وهياها للزارعين. فاستحق من أجل هذه المنة المجد الإلهى. ويقول المصريون أن برسبيوس perseus أيضاً ولد فى مصر. وأن اليونانيين الذين يروون فى أساطيرهم أن إيو Io قد مسخت بقرة، جعلوا أرجوس argos مسقط رأس إيزيس.

وبالجملة فقد اختلفت الآراء كثيراً حول هذين الإلهين لأن الإلهة عينها تسمى أحياناً إيزيس وأحياناً أخرى ديميتير وأحياناً

(١) الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ - ٩

(٢) الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ - ٩

ثسموفوروس (المقننة) وأحياناً سيليني (القمر) وأحياناً هيرا، بينما يدعوها البعض الآخر بجميع هذه الأسماء. أما أوزيريس فيدعى مرة سيرابيس ومرة أخرى ديونيسوس ومرة ثالثة بلوتو وراثة آمون ويسميه بعضهم زيوس ويظنه الكثيرون بان نفسه ويذهب البعض إلى أن سرابيس هو الإله الذى يدعوه اليونانيون بلوتو. ويقول المصريون أن إيزيس اكتشف أدواء كثيرة لتحسين الصحة فقد كانت ذات خبرة عظيمة فى فن الطب، ولذلك فإنها تجد لذة عظمية حتى بعد أن رفعت إلى مصاف الآلهة فى مداواة بنى الإنسان. وفى الأحلام تبذل العون لمن يهيبون بها، فتقيم بذلك الدليل الساطع على تجليها الذاتى وحسن صنعها لمن يلوذ بها من الناس. ويقول المصريون أنفسهم أنهم يقيمون الدليل على زعمهم هذا بوقائع بيّنة، لا بأساطير كالتى يزجوها اليونانيون. ويكاد العالم أجمع^(١) يشهد للمصريين على صحة دعواهم، لأن الناس يناقش بعضهم بعضاً فى تبجيلها لما تبديه من مظاهر التجلى فى مداواة المرضى، فهى تقف بجانب المرضى فى المنام، وتقدم لهم الدواء لدائهم وتأتى بالمعجزات فى شفاء الذين يسلمون إليها الأمر منهم، وقد شفى على يديها الكثيرون ممن استيأس منهم الأطباء لاستعصاء دائهم، وكثير ممن فقدوا أبصارهم تماماً أو اعتل منهم عضو من أجسامهم عادوا إلى حالتهم السابقة لما فزعوا إليها، وقد اكتشفت أيضاً إكسير الخلود. ولما تأمر العمالقة على قتل ابنها حورس، ووجدت جثته هامة تحت الماء، استطاعت بهذا الإكسير لا أن تبعثه حياً وتنفخ فيه الروح فحسب، بل جعلته ينال نصيبه من الخلود

(١) انتشرت عبادة إيزيس بامتداد نفوذ البطالمة، ولم تكد تخلو منها مدينة ذات شأن فى حوض البحر المتوسط.

أيضاً. وقد اتفق المؤرخون على أن حورس كان آخر الآلهة من عالم الفانيين الذين تبوأوا عرش مصر بعد أن (رفع أبوه أوزيريس إلى السماء) ويقال إن حورس، أحسن إلى الجنس البشري بالكهانة والتطبيب.

ويقدر كهنة المصريين الفترة بين حكم هليوس «الشمس» وبين غزو الإسكندر لآسيا بثلاث وعشرين ألف سنة تقريباً. وقد حكم أقدم آلهتهم كما جاء في أساطيرهم أكثر من مائتي وألف عام. وحكم من جاءوا بعدهم فترة لا تقل عن ثلثمائة عام. ولما كان هذا العدد الضخم من السنين غير معقول، فقد حاول البعض أن يفسر الأمر بأنه قد جرت العادة من قديم الزمان قبل أن يفتن الناس إلى حركة الأرض حول الشمس، بأن تحسب السنة بدوران القمر، ولما كانت السنة على هذا الاعتبار ثلاثين يوماً، فمن المعقول أن يكون بعض الناس قد عاش مائتي وألف عام. ففي وقتنا هذا، والسنة اثنتا عشر شهراً، ليس بقليل من يعيش أكثر من مائة عام، ولهم في أمر الذين اشتهروا بأنهم حكموا أكثر من ثلثمائة عام تفسير مشابه، فهم يقولون إن السنة في تلك العصور كانت مؤلفة من الأشهر الأربعة التي يتألف منها الفصل الواحد من فصول السنة - الربيع والصيف والشتاء. ولذلك يسمى بعض اليونانيين السنة «فصلاً» والتقاويم السنوية «التقاويم الفصلية».

ولقد جاء في الأساطير المصرية كذلك أنه ظهر في عهد إيزيس مخلوقات ذات أجسام متعددة، سماها اليونانيون المردة^(١)، وقد صورهم

(١) المردة في الأساطير اليونانية مخلوقات ذات أجسام هائلة لا متعددة، ويرى فوجل vogel أن النص غير متصل، وأن الأصل كان «سماها اليونانيون المردة، ويسميتها المصريون...

المصريون على جدران معابدهم فى أوضاع عجيبة وقد انهال عليهم أشياع أوزيريس ضرباً. ولكن يقول البعض إن المردة ولدتهم الأرض يوم بدأت الكائنات الحية فى النشوء. ويذهب البعض إلى أن تواتر القصة بأنهم ذوو أجسام عدة يرجع إلى تفوقهم فى القوة البدنية وإلى ما قاموا به من الاعمال، وقد أجمع الرواة على أنهم أبيدوا جميعاً فى حربهم مع زيوس وأوزيريس والآلهة الموالية لهما.

❧ وعلى نقيض العرف السائد بين الناس أجمعين، يجيز القانون للمصريين أن يتزوجوا من أخواتهم، وذلك، فيما يقال، لما أحرزته إيزيس بينهم من نجاح، فقد كانت حليمة لأخيها أوزيريس، ونذرت عند موته ألا تتخذ لها بعلا مرة أخرى. ثم ثارت لمقتل زوجها، وظلت تحكم بالقسطاس المستقيم. وبالجملة، فهى سبب ما أصاب الناس أجمعين من نعم عظيمة عديدة. ومن أجل هذه الأسباب عينها، جرى العرف على أن يكون للملكة من القوة والجد أكثر مما للملك، وأن يكون للمرأة بين سواد الناس حق القوامة على زوجها. ويتعهد العروس فى العقد الذى يبرم بشأن المهر أن يكون مطيعاً لعروسه فى جميع الأمور.

وليس بخاف على أن فريقاً من المؤرخين يجاهر بأن قبرى هذين الإلهين يوجدان فى نيسا فى بلاد العرب، ومن هنا دعى ديونيسوس «نيسايوس» وأنه قد أقيم لكل من هذين الإلهين نصب نقشت عليه كتابات بالحروف المقدسة. وقد نقشت على عمود إيزيس «أنا إيزيس

ملكة الأرض كلها، نشأني هرمس، ولن يستطيع أحد أن يتحلل مما سننت من شرائع، أنا الابنة الكبرى لكرونوس الرب الأصغر، أنا زوج الملك أوزيريس وأخته، أنا أول من كشف للناس عن الغلال، أنا أم الملك حورس، أشرق مع الشعري اليمانية ومن أجلى أنشئت مدينة باسطوس، مرحى، مرحى يامصر، يامن ربيقتني». ويقال إنه نقش على عمود أوزيريس «أبي كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين، وأنا أوزيريس الملك الذي جاب على رأس جيشه الأرض كلها حتى أقاليم الهند المقفرة، والمناطق التي تنحدر نحو الشمال حتى منابع نهر الإيستر^(١) ثم قفل راجعاً عبر مناطق أخرى حتى وصل إلى المحيط. أنا الابن الأكبر لكرونوس، وحيث إنني نجمت من بيضة ناصعة شريفة، فقد أصبحت بذرة تضارع النهار منبتاً. وليس في المعمورة إقليم لم أبلغه مسبقاً على الناس أجمعين الأنعم التي كنت قد اكتشفتها». ويمكن قراءة هذا القدر فقط فيما يقال، من النقوش التي على العمودين. أما الباقي وهو الجزء الأكبر منها فقد محته يد الزمان. ولقد تضاربت عند جمهرة الناس الروايات حول هذين الإلهين وذلك لأن الكهنة بعد أن وقفوا على القول الحق في هذين الإلهين حفظوا السر في طي الكتمان ولم يشاءوا أن يطلعوا الجمهور على حقيقة الأمر، بحجة أن الأخطار قد تنتاب كل من عساه أن يطلع العامة على سر هذين الإلهين.

المهتدين

(١) هو نهر الطونة أو الدانوب.



ويقول المصريون إن جاليات كثيرة خرجت من مصر منذ ذلك العهد، وانتشرت في جميع أنحاء المعمورة، فقد قاد بيلوس belus الذى ظنه الناس ابن بوزيدون poseidon وليبيا، جالية إلى بلاد بابل، وبعد أن أنزلها على شاطئ نهر الفرات، نصب فيها كهنة على نمط كهنة مصر، معفين من الضرائب ومن جميع الواجبات العامة، وهؤلاء الكهنة، ويسميهم البابليون الكلدانيين، يرصدون النجوم مقتفين في ذلك آثار كهنة مصر، وهم فلاسفة طبيعويون وفلكيون. ويضيفون إلى ذلك أن الجالية التى نزحت من مصر أيضاً تحت قيادة دناؤس danaus أسست مدينة أرجوس argos التى قد تكون أقدم المدن اليونانية. وأن الكولخييين colchi فى بلاد بنطش pontus واليهود فيما بين بلاد العرب وسوريا جاليتان نزحتا عن مصر واستقرتا هناك، ذلك بأن هذين الشعبين قد توارثا من قديم الزمن عادة ختان الأطفال عند الولادة، وهى عادة مأخوذة عن مصر. وهم يدعون أن الأثينيين أيضاً جالية من مدينة سايس saïs فى مصر، ويحاولون أن يقيموا الدليل على هذه الصلة. فالأثينيون وحدهم. دون سائر اليونان يسمون المدينة «أستى» asty وهو اسم مأخوذ من مدينة «أستى» فى مصر. ناهيك بأن الجمعية الأثينية خضعت لنفس نظام الطبقات السائد فى مصر. فقد قسمت الأمة إلى ثلاث طبقات الأولى يدعى أفرادها الأشراف eupatridea ويتمتعون بأوفى نصيب من التعليم وهم أهل لأسمى التكريم فى أعين الناس،

كما هو الأمر بالنسبة للكهنة في مصر. والطبقة الثانية تتكون من ملاك الأرض geomoroi وقد كان عليهم أن يتزودوا بالسلاح وأن يحاربوا من أجل بلادهم، مثلهم في ذلك مثل الطبقة التي تدعى في مصر طبقة المزارعين، وهي التي تغذى البلاد بالجند. أما الطبقة الثالثة فيندرج تحتها العمال demurgoi الذين يقومون بالحرف الآلية، ويؤدون الأعمال الضرورية للمجتمع، والطبقة التي تقابل هذه عند المصريين ضربت عليها نفس هذه التكاليف.

هذا إلي أن بعض قادة الاثينيين كانوا من المصريين، فبتيس Petes^(١) مثلاً، والد مينيسثيوس MENESTHEUS الذي اضطلع بنصيب في الحرب ضد طرواده، كان مصرياً بلا جدال، وصار فيما بعد مواطناً ثم ملكاً في أثينا [ومثل هذا يقال عن كيكروبس CECROPS الذي^(٢)] كان ثنائي الوطن، يونانيا ومصريا في نفس الوقت، فقد كان ثنائي الجسم أيضاً، جزء حيواني والنصف الآخر إنساني.

وكذلك يدعون أن إرخثيوس ERECHTHEUS وهو مصري المولد صار ملكاً على أثينا، ويقيمون على ذلك براهين كثيرة نقتطف منها ما يلي: لما حدث ذلك الجفاف الشديد الذي يجمعون على وقوعه، وعم كل أنحاء المعمورة تقريباً فيما عدا مصر لطبيعة أرضها الخاصة، وأتى على الحبوب وعلى أعداد غفيرة من الناس، استورد إرخثيوس وقد

(١) بسمه هوميروس في الإلياذة ٣، ٥٥٢ بيتوس

(٢) العبارة التي بين المعكفين غير واردة في النص، ولكن الوصف ينطبق على كيكروبس أول ملوك أثينا كما جاء في الأساطير، وكان نصفه الأسفل في هيئة ثعبان.

كان على صلة وثيقة بمصر مقادير وفيرة من القمح من مصر إلى أثينا، فنصب الآثينيون هذا المنعم الذي لاقوا الخير على يديه ملكا عليهم، ولما ولى الملك أدخل طقوس عبادة ديميتير DEMETER في إلبوسيس ELEUSIS واستحدث طريقتها الصوفية ناقلاً مراسم هذه الطرق من مصر. وقد تواتر القول بأن ديميتير قد تجلت في أثينا في ذلك العهد على زعم أن الحبوب التي سميت باسمها قد أدخلت حينذاك. وقد ظن الناس أن ديميتير اكتشف في ذاك الحين البذور كما اكتشفت أول الأمر. أما الآثينيون فيقررون من ناحيتهم بأنه لما أتى الجفاف على غلتهم في الحقول في عهد إرخثيوس، وقعت ظاهرة تجلى ديميتير بينهم مقترنة بنعمة نضوج القمح، ويضيفون إلى ذلك أن طقوس عبادة هذه الإلهة وطرقها الصوفية قد أدخلت في إلبوثيس في ذلك العهد، وأن الآثينيين والمصريين يتشابهون في كيفية تقريب الضحايا والقيام بمراسم العبادة التقليدية. ويقولون كذلك أن اليومولبيداى EUMOLPIDAE من سلالة كهنة مصر، وأن الكيروكيس CERYCES^(١) من سلالة حملة النواويس، وأن الآثينيين وحدهم من بين سائر اليونانيين يحلقون بإيزيس وهم أشبه ما يكونون بالمصريين في أفكارهم وعاداتهم، ويأتي المصريون بكثير مما شاكل ذلك من البراهين التي تقوم فيما أرى على النخوة القومية لا على أساس من الحقيقة، وذلك ليدعموا دعواهم القائلة بأن أثينا مستعمرة مصرية، يغيرهم بذلك بعد صيت هذه المدينة. وبالجملة فالمصريون

(١) اليومولبيداى أى سلالة يومولبوس، والكيروكيس أى السفراء، عائلتان من الأشراف في أثينا وكل إليهما الإشراف على أمور الدين.

يَدْعُونَ أن أسلافهم قد أنفذوا جاليات عديدة إلى كثير من بقاع المعمورة وقد كان منشأ هذه الدعوى سببين: رفعة شأن ملوكهم، وكثرة عدد سكان البلاد. وحيث إنهم لا يقيمون حجة دامغة على صحة دعواهم هذه، ولا يشهد مؤرخ ثقة بصحتها، أرى أن هذه الروايات ليست جديرة بالتسجيل. ولنكتف بهذا القدر من أساطير المصريين بشأن آلهتهم، حرصاً من على تناسق أجزاء قصتنا، وسنحاول أن نورد باختصار فيما يلي وصف أرض مصر ونيلها وسائر ما هو أهل للذكر فيها.

٣٥ تمتد مصر بوجه عام من الشمال إلى الجنوب وقد عرفت بأنها تفوق سائر الأقطار كثيراً، لحسن موقعها وجمال مناظرها، وتحميها من ناحية الغرب الصحراء الليبية، التي تموج بالحيوانات المفترسة وتمتد إلى مسافات شاسعة. ولقد كانت قلة مياهها وندرتها وجود جميع أنواع الغذاء فيها سبباً في أن اجتيازها لم يكن مضمناً فحسب، بل خطراً جداً أيضاً. أما من ناحية الجنوب، فتحميها شلالات النيل والجبال المتصلة بها. إذ من المتعذر الملاحة في النهر أو سلوك الطريق البري من بلاد التروجوديتيس^(١) TROGODYTES في أقاصى بلاد الحبشة وهى مسافة ٥٥٠٠ ستاد، إلا إذا كان المرء مزوداً بعتاد ملكى أو ركب بالغ الفخامة. أما المناطق التي تقع في الجبهة الشرقية فيحمي بعضها النهر، وتحيط بالبعض الآخر الصحراء، والأرض ذات المستنقعات التي تسمى «الجب» BARATHRA ذلك بأنه توجد فيما بين جوف

(١) تروجوديتيس أى سكان الكهوف وقد عرفهم سترابون ١ ، ٢ ، ٣٤ بقوله «قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلي مصر والحبشة».

سوريا (غور سوريا) ومصر بحيرة ضيقة جداً ولكنها عميقة وطولها حوالي ٢٠٠ ستاد تدعى بحيرة سربونيس^(١) SERBONIS يمكن فيها الخطر لكل من يجوب هذه المنطقة دون سابق معرفة بها، فعرض الماء فيها ضئيل كالشريط، وتحيط بها الكثبان الرملية من جميع الجهات. وعندما يطرد هبوب الرياح الجنوبية، تغطي سطح الماء بكميات كبيرة من الرمال، وهذه تخفى تحتها سطح الماء وتجعل شكل البحيرة مشابهاً للأرض اليابسة المحيطة بها، بحيث لا يمكن تمييزها مطلقاً. ولذلك ياد الكثيرون من غير العارفين بطبيعة هذا الأقليم، مع جيوش بأسرها، كلما حادوا عن الطريق المطروقة، ذلك أن الرمال حينما يسير عليها الناس، تنهار من تحتهم بالتدرج وتخدع عابرها في شيء من المكر السيء، حتى إذا ما استشعروا الخطر المحقق، أخذوا في شد أزر بعضهم ولات ساعة نكوص أو هرب. فكل من تقتنصه هذه اللجة لا يستطيع العوم لأن الوحل يعوق حركة الجسم، ولا هو بمستطيع أن يخوض فيها وليس لقدميه منها متكأ ركين، فالرمال كما ترى قد امتزجت بالماء، وأخذ كل من طبيعة الآخر، وهكذا أصبحت هذه المنطقة غير صالحة للسير أو الملاحة. ولذلك فكل من يرتاد هذه البقعة يهبط إلى أعماقها ولا يجد ما يتشبث به ليعينه على النجاة، لأن الرمال على الحواف تنهار بمن يتعلق بها، وقد أطلق على هذه السهول اسم مناسب لطبيعتها التي وصفنا، إذ سميت «الجيب».

(١) تسمى الآن بردويل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذي مات فيها في الحروب الصليبية سنة ١١١٨.

٣٩ الآن وقد وصفنا المناطق الثلاث التي تحمي مصر من البر، بقي أن نضيف إليها وصف الجهة الباقية فالجهة الرابعة التي يلاطمها الموج على طول الساحل كله تقريباً دون مرفأ ما يحميها «البحر المصرى»^(١) إذ الملاحة على طول هذا الشاطيء طويلة مضنية، والرسو عليه متعذر للغاية. فلا يوجد فيما بين برايتونيوم PARAETONIUM في ليبيا وإيويو IOPE^(٢) في فلسطين وهي مسافة بحذاء الشاطيء طولها حوالي ٥٠٠٠ ستاد تقريباً، ميناء واحد صالح لرسو السفن سوى ميناء فاروس PHAROS وبغض النظر عن هذه الاعتبارات، فإن شريطاً من الرمل يمتد على طول الساحل المصرى لا يمكن رؤيته لغير الملاح المحنك. ولذلك نرى المسافرين الذين يتوهمون أنهم قد نجوا من أخطار البحر ويندفعون نحو الشاطيء في غفلتهم متهللين يجدون سفينتهم وقد ارتطمت ياليابسة بغتة فتحطمت ويفجعون فيها. ويحدث أحيانا ألا يستطيع بعض الملاحين تمييز هذا الشاطيء الواطيء فتتحطم السفينة على غزاة منهم، إما في منطقة مستنقعات ذات برك آسنة، وإما على بقعة جرداء.

فمصر إذن محصنة تحصيناً طبيعياً من جميع الجهات كما أسلفنا القول، وهي مستطيلة الشكل، طول شاطئها ٢٠٠٠ ستاد وتمتد من الداخل حوالي ٦٠٠٠ ستاد، وقديماً كانت تبرز سائر أرجاء المعمورة جداً في كثافة السكان، أما في عصرنا هذا فالشائع أنها لا تقصر عن أيها في

(١) يعنى البحر المتوسط في المنطقة التي يلامس فيها شواطئ مصر

(٢) هي يافا الآن.

هذا المضمار. وكان فيها في العصر القديم ما يزيد على ١٨٠٠٠ مدينة وقرية ذات شأن كما ثبت في الوثائق المقدسة، أما في عصر بطليموس بن لاجوس^(١) فقد عدَّ منها أكثر من ٣٠٠٠٠^(٢) ما زال أكثرها مزدهراً إلى وقتنا هذا.

ويقال إن تعداد السكان في العصر القديم كان حوالي ٧ مليون نفساً وهو لا يقل عن ذلك في أيامنا هذه. ويرجع الفضل إذن إلى كثرة الأيدي العاملة فيما يحكي من أن الملوك القدماء قد ابتنوا منشآت عظيمة باهرة قامت شاهداً خالداً على مجدهم. وسنورد بعد قليل وصفاً دقيقاً لها، أما الآن فسنتكلم عن طبيعة نهر النيل ومميزات البلاد الطبيعية.

٣٢ يجري النيل من الجنوب إلى الشمال، وينبع من بقعة لم ترها عينان، لأنها في أقاصي الحبشة في منطقة لا يمكن لشدة حرارتها أن تطأها قدمان. وهو أكبر الأنهار قاطبة، وينحني انحناءات شديدة في طريقه مخترقاً هذه الرقعة الطويلة من الأرض. فينحرف مرة ناحية بلاد العرب شرقاً، ومرة ناحية ليبيا غرباً، وطول مجراه من جبال الحبشة إلى مصبه في البحر بما في ذلك منحنياته حوالي ١٢٠٠٠ ستاد. ويصغر حجم حوض النهر الجنوبي باطراد لانسياب الماء إلى كلتا القارتين^(٣)، ويتفرع عن النهر فروع عديدة يتجه بعضها نحو ليبيا

(١) هو بطليموس الأول، حكم مصر من سنة ٣٢٣-٢٨٥ ق، م، وقد زار مصر في عهده المؤرخ هيكاتيوس، فلعل ديودور قد نقل عنه ما أثبت من إحصاءات.

(٢) قال هيروdot ٢، ١٧٧ إن عدد المدن المصرية في عهد أمازيس (القرن السادس ق. م) كان عشرين ألف مدينة. فلعل ديودور قد أضاف إليها القرى الشهيرة.

(٣) كان الجغرافيون المتقدمون يجعلون من النيل الحد الفاصل بين آسيا وأفريقية.

هذه تتشربها الرمال البعيدة الغور، ويجرى البعض الآخر فى الناحية المضادة نحو بلاد العرب، وهذه تتحول إلى مستنقعات واسعة وبحيرات عظيمة تعيش حولها قبائل عديدة. ويكون عرض النهر عندما يدخل البلاد المصرية ١٠ ستاد، ويكون أحياناً أقل من ذلك عرضاً. ولا يجرى فى طريق مستقيمة، بل ينحنى شتى الانحناءات، فينحرف ساعة نحو الشرق، وساعة نحو الغرب، وأحياناً ينكفى، نحو الجنوب فى اتجاه مضاد لاتجاه مجراه الأصلي تماماً. ذلك أن المرتفعات تمتد على جانبي النهر، وتغطى جزءاً كبيراً من ضفتيه، وتتخللها ممرات ووديان صخرية ضيقة. فعندما يصطدم النهر بهذه المرتفعات، ينكفى بسرعة إلى الوراى فى الأرض المنبسطة، وبعد أن يجرى شوطاً طويلاً إلى الجنوب، يعود ثانية إلى مجراه الأصلي. ولقد كانت هذه المميزات التى ينفرد بها النيل دون سائر الأنهار سبباً فى أنه النهر الوحيد الذى ينساب فى مجراه دونما عنف أو موج دافق، اللهم إلا فى المنطقة التى تسمى الشلالات. ففي هذه المنطقة - وطولها حوالى عشرة ستاد- ينحدر النهر انحداراً شديداً، وتحده من الجانبين صخور عالية تجعل منه برزخاً ضيقاً، وهى مليئة بالتنوءات والشقوق، وفيها كثير من الصخور، وتدفعه هذه العوائق بشدة إلى الوراى فى اتجاه مضاد لاتجاهه الأصلي، فتكون فى النهر دوامات كبيرة، يمتلىء مركزها بالزبد، وهى نتيجة اندفاع الماء إلى الوراى. وتلقى هذه الدوامات فى قلوب مرتادى هذه البقاع روعة بالغة. والواقع أن تيار النهر سريع وقوى إلى حد أنه يبدو كالسهم المنطلق. وفى أثناء الفيضان حيثما تختفى هذه الصخور تحت سطح الماء، ويغمر فيض المياة الزاخر

كل هذه المنطقة الصخرية، ينحدر بعض الملاحين على الشلالات عندما تهب الرياح مضادة لهم. ولكن لا يمكن لأحد أن يصعد في النهر عبر الشلالات لأن قوة تدفق الماء تملو على كل مجهود إنساني. وهناك شلالات أخرى كثيرة ولكن أكبرها ما يقع على الحدود بين الحبشة ومصر.

ويضم النيل بين مياهه أيضاً جزءاً عديدة، كثير منها في الحبشة، إحداهما عظيمة الاتساع، وتسمى مروى meroe، فيها مدينة شهيرة تسمى باسم الجزيرة، وقد انشأها قميميز وأطلق عليها اسم أمه مروى meroe، وشكل هذه الجزيرة فيما يقال مثل الدرع الطويلة، وتفوق سائر جزائر هذه البقاع حجماً بكثير، فطولها ٣٠٠٠ ستاد، وعرضها ١٠٠٠ ستاد. وبها كثير من المدن أشهرها مروى. وتجم كثنان رملية ممتلئة على طول ساحل الجزيرة المواجه لليبيا الذي تتكسر عليه أمواج النهر، أما الساحل المواجه لبلاد العرب فتعلوه صخور عاتية. وبالجزيرة مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس، هذا إلى كميات وفيرة من الخشب الأبنوس وشتى أنواع الأحجار الكريمة. وبالجملة، فالنهر يكون جزراً كثيرة إلى حد يشكك السامع في صدق ما يروى عن عددها. فبغض النظر عن الأرض التي يحيط بها النيل في المنطقة التي تسمى «الدلتا» يوجد أكثر من سبعمائة جزيرة يفلح بعضها الأحباش والنسائيس وسائر أنواع الحيوان، فهي لذلك غير صالحة لسكنى الإنسان.

وعندما يتفرع النيل في مجراه في مصر إلى فروع كثيرة يكون المنطقة التي تسمى نسبة إلى شكلها «بالدلتا» (المثلث)، أما ضلعاها فالفرعان المتطرفان، بينما يكون قاعدته البحر الذي يبتلع مياه النهر من

مصباته العديدة. فالنيل يصب في البحر من فروع سبعة، أولها من الشرق الفرع البيلوزي والثاني التانيتي ثم المنديسي ثم الفاتنتي ثم السبنتي، ثم البولبتي وأخيراً الفرع الكانوبي ويسميه البعض الفرع الهرقلي^(١). وهناك مصبات أخرى صناعية ولكن ليس بنا من حاجة إلى ذكرها. وتقوم على رأس كل من هذه المصبات مدينة مسورة يشطرها النهر شطرين، وتمتد منها على جانبي المصب قنطرتان، وقلاع في مواقع صالحة.

وتخرج من الفرع البيلوزي قناة صناعية تصل إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، وأول من قام بهذا العمل نيخو^(٢) بن بسماتيك، ثم تلاه دارا الفارس الذي سار في هذا المشروع شوطاً بعيداً ثم تركه ولم يتمه، فقد حذره بعضهم بأنه إذا أتم حفر القناة إلى الخليج فإنه يكون سبباً في إغراق مصر، فقد أوهموه أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح مصر^(٣). وقد أتم بطليموس حفر القناة في عصر متأخر، وأقام عليها في أكثر المواضع صلاحية هويساً فريداً في نوعه، يفتحه كلما أراد المرور ثم يغلقه بعد ذلك مباشرة، وقد تمت هذه العملية بنجاح. ويسمى

(١) سمي هيرودوت ٣، ١٧، الفرع التانيتي بالفرع السائسي والفرع الفاتنتي بالفرع البوكولي، وقد يكون هذا هو فرع دمياط الآن. أما الفرع البولبتي فهو فرع رشيد.

(٢) حكم نيخو مصر من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٥٩٣ ق.م. وحكمها دارا من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م.

(٣) هذه القناة وهي قناة السويس، تتفرع على النيل شمال بوياطيس ثم تسير في وادي الطميلات إلى البحيرات المرة، ثم تنحدر إلى الجنوب وتتصل بالبحر الأحمر. ويرى فريق من المؤرخين أنها ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة.

فرع النهر الذى ينساب فى هذه القناة باسم حافرها بطليموس وتقع على رأسها مدينة تدعى أرسنوى arsinoe.

٣٤ وتشبه الدلتا جزيرة صقلية فى الشكل، وطول كل من ضلعيها ٧٥٠ ستاد وقاعدتها التى يحف بها البحر طولها ١٣٠٠ ستاد، ويخترقها كثير من القنوات الصناعية، وهى تشمل أخصب أراضي مصر. لما كانت تربتها طميية وسهلة الري، فهى تنتج محصولات وفيرة من جميع الأصناف. فالنهر يلقي عليها فى فيضانه السنوى بغرين جديد، ويسهل على سكانها رى مساحتها كلها بوساطة الاختراع الذى استحدثه أرخميديس السيراكيوزى، ويسمى نسبة إلى شكله بالحلزون^(١)

ولما كان تيار النيل هيناً، وكان النهر يحمل مقداراً كبيراً من جميع أنواع التربة، ويجعل من الأراضي الواطئة بركاً، فقد تكونت بذلك مستنقعات شديدة الخصوبة تنمو فيها النباتات ذات السيقان المختلفة الطعم، والفاكهة والخضروات التى لا تنمو فى غير هذه البلاد. وكلها ينمو بكثرة تسد حاجة المعوز والمريض. وهى لا تمدهم بغذاء مختلف الألوان دانى القطوف وافر لكل من يحتاج إليه فحسب، بل يقوم عليها كذلك غير قليل من ضرورات الحياة. فالبشنيين مثلاً، الذى ينمو فيها بكثرة، يصنع منه المصريون خبزهم الذى يقيمون به أودهم. وينمو فيها كذلك القيبوريوم^(٢) بوفرة، وهو يثمر الحبوب المعروفة بالباقلى القبطى

(١) يعنى الطنبور.

(٢) القيبوريوم ثمرة الباقلى القبطى nymphaea nelumbo

وفيهما كذلك أنواع أخرى كثيرة من الأشجار، منها «الفارسية»^(١) التي استوردها الفرس من الحبشة عندما غزاها قمبيز وفاكهتها حلوة المذاق جداً. أما شجر الجميز فيثمر نوع منه التوت، ويثمر نوع آخر فاكهة تشبه التين، وهذه مثمرة على مدار السنة، ويوجد فيها الفقراء ملاذاً سهلاً من عوزهم. أما الفاكهة المسماة بالتوت البري فتقطف أيام التحاريق، وهم يتخذونها عُقبَةً للذيذ مذاقها. ويستخرج المصريون من الشعير شراًباً لا يقل عن النبيذ نكهة، يسمونه (زيثوس zythos جعة)، ولا يستخدمون في إيقاد مصابيحهم زيت الزيتون، بل زيتاً مستخرجاً من نبات يسمى كيكى kiki (زيت الخروع)، وينمو في مصر بوفرة كثير من النباتات الأخرى التي تفي بحاجات الإنسان الضرورية، ولكن يطول بنا القول لو تحدثنا عنها.

٣٥ وهناك نوعان متميزان عن سائر الحيوانات الغريبة الشكل التي تعيش في النيل، هما التمساح وفرس البحر. أما التمساح فبعد أن يكون صغيراً جداً يكبر إلى أن يصبح ضخماً للغاية. فيبيضته في حجم بيض الأوز وبعد أن يفقس يكبر إلى أن يبلغ طول التمساح ست عشرة ذراعاً. وهو يعمر كالإنسان، وليس له لسان^(٢). وقد عملت الطبيعة على حماية جسمه بمهارة فائقة، فجسمه كله مكسو بقشر شديد الصلابة، وزوّد فكاه بأسنان عديدة، وله نابان أكبر حجماً بكثير من الأسنان. ولا يأكل لحم الإنسان فحسب، بل لحم كل ما يقرب النهر من دواب

(١) شجرة اللبخ.

(٢) للتمساح لسان صغير جداً.

الأرض. وهو قوى العضة، ويصيب بجراح بالغة إذا أنشب مخالفه، ولا يمكن مداواة الجسم فى موضع عضته. وكان المصريون يصيدونه فى غابر الأزمان بالشص وقد علقت بها قطعة من لحم الخنزير. ولكنهم عدلوا عنها من قديم الزمن إلى الشباك المتينة يصيدونه بها كما يصيدون بعض أنواع الأسماك. ويصيدونها أحياناً من قواربهم بسهام حديدية يوالون إطلاقها على رؤوسها. وهناك عدد لا يحصى من التماسيح فى النهر وفى البحيرات المتاخمة له إذ أنها كثيرة التوالد وقلما يقتلها الناس، والعرف الذى جرى عليه أكثر أهل البلاد هو أن يعبدوا التمساح كإله، وحيث إن لحمه لا يؤكل فإن صيده عديم الجدوى تماماً للأجانب. ولما كان فى تكاثره ضرر بالإنسان، فقد جاءت الطبيعة بعلاج ناجع فى ذلك، فالحيوان الذى يسمونه إخنيمون (النمس) ichneumon يروح مهشماً البيض الذى يضعه التمساح على حافة النهر، ومما يدعو إلى أشد العجب، أن النمس، وهو لا يأكل هذا البيض ولا يستفيد منه فى أى وجه، يثابر على أداء هذه الخدمة الطبيعية والضرورية لخير الإنسان.

أما الحيوان المسمى «بفرس النهر» فلا يقل طوله عن خمس أذرع، وله حوافر مشقوقة كحوافر الثور، وله ثلاثة أنياب على كلا الجانبين وهى أكبر من أنياب الخنزير البرى، أما أذناه وذيله فتشبه آذان الخيول وذيلها وصوته يحاكي سهيل الفرس، ويمائل جسمه بوجه عام جسم الفيل، وجلده أخشن من جلود سائر الحيوان. ولما كان البحر حيواناً بحرياً وبرياً على السواء، وهو يقضى نهاره فى الماء غائصاً فى أعماقه، أما الليل فيقضىه على الأرض، يرعى القمح والتبن، فلو أنه كان كثير

التوالد، يلد كل عام، لأتى على حقول مصر كلها. ويجتمع لصيده جمهرة من الرجال، يقذفونه بحراب حديدية. فعندما تقع عليه أعينهم، يلتفون حوله بقواربهم ويصيبونه بجروح عديدة بآلة حادة كالأزميل مثبتة فى حربة حديدية. ثم يربطون أحد هذه الحراب المغروسة فى جسمه بطرف حبل، ثم يرخون له من الحبل وينتظرون إلى أن تنهك قواه لكثرة ما ينزف من دم. ولحمه خشن عسر الهضم، وليس من أعضائه الداخلية ما يؤكل، سواء فى ذلك الأحشاء^(١) والمصارين.

٣٦ وفى النيل بجانب ما ذكرنا من حيوان أعداد لا تحصى من مختلف أنواع الأسماك، فهو لا يمد السكان بكميات وفيرة من الأسماك الطازجة فحسب، بل لهم منه معين لا ينضب للتمليح، وبالجملة، يفوق النيل سائر أنهار العالم منفعتة للإنسان. فهو يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى ويظل فى زيادة مطردة إلى زمن الاعتدال الخريفى ويجلب الطمي الحديث طوال هذه الفترة، ليخصب الأرض البور، وحقول الحبوب، وبساتين الأشجار زمنا يتوقف طوله على مشيئة الزراع. ذلك أن مياه النهر تنساب بلطف، ففى استطاعتهم أن يوجهوها إلى حقولهم بواسطة سدود منخفضة ثم يخلون لها السبيل بسهولة بقطع هذه السدود كلما عنت لهم فى ذلك فائدة. وفى الحق جعل النيل الزراعة سهلة ميسرة إلى حد أن الفلاحين يستريحون من عملهم فى انتظار جفاف الأرض، وبعد بذر الحب يستخدمون ماشيتهم فى غرسه فى الأرض، ثم يعودون إلى الأرض بعد أربعة أو خمسة أشهر للحصاد. ويستعمل بعض

(١) يعنى بالأحشاء القلب والكبد والرئتين والكليتين.

الزراع محارِث خفيفة لحرث أديم الأرض بعد ربيها، وبعد ما يجمعون حصادهم أكداسا بقليل من النفقات والمشقة. فعند سائر الشعوب تحتاج جميع الأعمال الزراعية على العموم إلى مشقة كبيرة وتكاليف باهظة، وفي مصر وحدها لا تتطلب هذه الأعمال سوى مجهود تافه وتكاليف ضئيلة. والكروم، وهي تروى بنفس الطريقة، تدر كميات وفيرة من النبيذ أما السكان الذين يتركون الأرض بعد جفافها مرعى لماشيتهم فيجنون ثمار ذلك، لأن الماشية نظرا لخصوبة المرعى مرتين في العام، وتجز أصوافها مرتين كذلك.

وتبدو ظاهرة فيضان النيل غريبة للذين يرونها رأى العين، وهي أمر غير معقول عند من تصلهم عن طريق السماع فحسب. فبينما تبدأ كل أنهار العالم في الهبوط في الانقلاب الصيفي ثم تأخذ في الارتفاع باطراد طوال فترة الصيف التالية، يبدأ نهر النيل وحده في الارتفاع في ذلك الوقت ويزيد يوما بعد يوم إلى أن يغمر في النهاية كل مصر تقريبا. وكذلك يسلك فيما بعد أسلوبا عكسيا فيأخذ في النقصان يوما بعد يوم لمدة تضاهي الفيضان؛ حتى يعود إلى منسوبه الأصلي. ولما كانت الأرض سهلا مستويا، والمدن والقرى والمسكن الريفية قائمة على تلال صناعية؛ فإن منظرها حينئذ مشابه لجزر السيكلاديس^(١). أما الحيوانات الأرضية المقترسة فيقضى النهر على معظمها ويغرقها بمياهه، وبعضها ينجو بحياته بلجوئه إلى المرتفعات. أما الماشية فتعلف إبان الفيضان في القرى والمسكن الريفية حيث يخزن لها العلف

(١) مجموعة من الجزائر الصغيرة تحيط بجزيرة ديوس

من قبل. أما عامة الشعب فتجنح طوال وقت الفيضان - وقد ارتفع عنها عبء العمل - إلى اللهوا، فتجعل من أيامها كلها أعيادا وتتمتع ولا حرج بكل أسباب السرو.

ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من الأهمية حافزا للملوك إلى إقامة «مقياس النيل» في منف، وعهد في إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط، وينفذون الرسائل إلى المدن يبلغون الناس فيها بمقدار ارتفاع النهر بالأذرع، وميقات انخفاضه بالضبط. وحينما يعلم الشعب بهذه الطريقة أن النهر توقف عن الارتفاع، وأخذ في الهبوط، يذهب عنه انزعاجه، ويعرف سلفا مقدار المحصول القادم بالضبط، ذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم في ذلك الأمر مدى حقبة طويلة.

﴿٣٧﴾ ولما كان فيضان النيل ظاهرة مستعصية التفسير، فقد أخذ الكثيرون من الفلاسفة والمؤرخين على عاتقهم مهمة تحليلها، وسأحدث عن ذلك باختصار، فلا نستطرد استطرادا طويلا، ولا نهمل إثبات أمر يتوق الناس كلهم إلى معرفته. وبالجملة فمشكلات فيضان النيل، ومنابعه وصبه في البحر، وسائر هذه المميزات التي انفرد بها النيل - أكبر أنهار المعمورة - عن بقية الأنهر، قد تركها بعض المؤرخون دون أن يجرؤوا على أن يقطعوا فيها برأى، في حين أنهم يسترسلون أحيانا في القول عن بعض الأمطار الشتوية. وانبرى البعض الآخر للتحدث عن هذه المسائل ولكنهم حادوا كثيرا عن جادة الصواب. فقد لجأ هيلانيكوس

Hecataeus و كاداموس Cadmus مثلاً، وكذلك هيكتاتيوس Hecataeus ومن لف لفهم من الكتاب - وكلهم ينتمون إلى المدرسة القديمة^(١) - إلى التعليقات الخرافية. أما هيرودوت، وقد كان باحثاً ومدققاً للغاية، وواسع المعرفة بالتاريخ، فقد حاول حقاً تفسير هذه الظاهرة. ولكن نظرياته - كما ثبت الآن - متناقضة. وأحجم كزينوفون Xenophon وثوكيديديس Thucydides اللذان نالا إعجاب الناس لدقة رواياتهما عن وصف أرض مصر كلية أما إيفورس Ephorus وثيوبومبوس^(٢) Theopompus اللذان أوليا هذه المسائل كل عنايتهما، فقد كانا أقل الكتاب إصابة لمحجة الصواب. ولا ترجع خيبة هؤلاء الكتاب أجمعين إلى الإهمال بل إلى خصائص هذه البلاد الفريدة. فمنذ العصور القديمة إلى عهد بطليموس الملقب بفيلادلفوس^(٣)، لم تطأ قدم يوناني واحد بلاد الحبشة، بل لم يبلغ أحد منهم حدود مصر الجنوبية، فكل هذه المناطق لم تكن معروفة للأجانب وكانت خطره للغاية. والملك السالف الذكر هو أول من أرسل

(١) المدرسة القديمة هي طبقة الكتاب الذين عنوا بكتابة التاريخ نثرًا وقد أولوا الأساطير اهتماماً كبيراً ولم يكن لهم نصيب كبير من ملكة النقد. هيلانيكوس المتليينى ولد سنة ٤٨٠ وعاش حوالي ٨٥ سنة، وهو أول من قوم تاريخ بلاد اليونان. كاداموس الملطي لا يعرف عنه شيء على وجه التحقيق. هيكتاتيوس الملطي ولد سنة ٥٥٠ ق.م وزار مصر حوالي عام ٥٢٦ ق.م وقد ألف كتابين أحدهما في وصف العالم، والآخر في الأساطير اليونانية ومات حوالي سنة ٤٧٦ ق.م

(٢) ثيوبومبوس ألف كتاباً في تاريخ اليونان أكمل به تاريخ ثوكيديديس إلى عام ٣٩٤ ق.م وكتاباً في تاريخ فيليب المقدوني.

(٣) هو بطليموس الثاني حكم مصر من سنة ٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م تزوج بأخته أرسنوى وسعى بعد موته فيلادلفوس أي «المحب لأخته».

جيشاً من اليونانيين لغزو بلاد الحبشة، ومنذ ذلك الحين تصلنا معلومات أكثر دقة عن هذه البلاد.

هذه إذن أسباب جهل المؤرخين المتقدمين. أما عن منابع النيل، والمنطقة التي ينبثق منها النهر، فلم يدع أحد حتى كتابة هذه السطور رؤيتها، ولم يورد أحد وصفاً لها عن لسان قوم ادعوا رؤيتها. وهكذا ما برحت هذه المسألة مجالاً للتخمين والتكهن. ويذهب كهنة المصريين إلى أن النيل يستمد مياهه من الأوقيانوس الذي يحيط بالمعمورة، ولكن لا نصيب لقولهم هذا من الصحة. فهم يحلون مشكلة بمشكلة أخرى، ويزجون بمثابة برهان حجة تفتقر في ذاتها إلى برهان دامغ. وتقول طائفة من التروجوديتيس Trogodytes وهي التي نزحت من المنطقة الداخلية لشدة حرارتها وتسمى قبيلة البولوجيين Bolgii، أن هناك من الظواهر ما يشير إلى أن أنهاراً كثيرة تلتقى في مكان واحد وتكون مجرى النيل، وأن هذا هو السبب في أنه أكثر الأنهار المعروفة إخصاباً. ويميل المرء إلى الركون إلى قول سكان الجزيرة المعروفة بمرى Meroe لأنهم أبعد ما يكونون عن التماس علي تناسب ما يتصورون من فروض، ولأنهم كذلك أقرب الناس إلى هذه المنطقة موضوع بحثنا. ولكنهم فضلاً عن أنهم لا يقطعون برأى في هذه المسائل، سمو النهر أستابوس Astpus ومعناها في اليونانية «مياه من الظلام»، مطلقين عليه اسماً يتفق مع ما يعوزهم من دقة وملاحظة هذه البقاع وشدة جهلهم بها. والرأى عندنا أن أقرب التعليقات إلى الحقيقة أبعدا عن التكهنات.

ولست بجاهل أن هيروdot^(١) في تفرقة بين ليبيا التي تقع إلى الشرق من النهر وليبيا التي تقع في غربه، عزا إلى القبائل الليبية المعروفة بالنسامونيين Nasamones^(٢) البحث عن مصدر النهر، وقال إن النيل ينبع من إحدى البحيرات ثم يسير مسافة طويلة جداً في الأرض الحبشية، ولكن لا يمكن أن نثق لأول وهلة بقول الليبيين، ولا كان ما قاله صدقاً، ولا بقول مؤرخ تفتقر روايته إلى برهان.

والأن بعد أن تكلمنا عن منابع النهر ومجرده، سنحاول أن نورد أسباب فيضانه. يقول طاليس^(٣) Thales، وهو أحد الحكماء السبعة، إن الرياح التجارية تهب في اتجاه مضاد لمصب النهر، فتمنعه من أن يصب في البحر، وإن هذا هو السبب في ارتفاع النهر، وفيضانه على أرض مصر وهي سهل منخفض. ولكن، بالرغم من وجهة هذا التفسير، فمن السهل إظهار بطلانه، فلو أن هذا التعليل كان صحيحاً لفاضت للأسباب عينها كل الأنهار التي تواجه الرياح التجارية مصباتها. وحيث إن هذا لا يحدث في أي جزء من المعمورة، فيجب أن نولي وجهنا ناحية أخرى بحثاً وراء السبب الحقيقي للفيضان. ويذهب الفيلسوف الطبيعي أناكساجوراس Anaxagoras إلى أن سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج في الحبشة، وقد شايعه في رأيه هذا تلميذه الشاعر يوريبديدس Euripides حيث يقول:

(١) هيروdot ٢، ٣٢.

(٢) قبائل رحل تعيش حول خليج سدرة في شمال أفريقية.

(٣) طاليس الفيلسوف اليوناني عاش في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

« لقد هجر أطيب أمواه الأرض
 « النيل الذى ينبثق فائضاً
 من أرض الأحباش ذوى البشرة السوداء
 « كلما ذابت الثلوج..

والواقع أن هذا التفسير لا يحتاج إلى كبير عناء لتنفيذه، فمن الجلى أن سقوط الثلوج فى الحبشة أمر مستحيل لشدة الحرارة هناك. وعلى العموم، فليس فى هذه البقاع جليد أو برد أو أى علامة من علامات الشتاء وخصوصاً فى وقت فيضان النيل. وحتى إذا سلمنا بأن هناك ثلوجاً متراكمة، فالدليل مازال قائماً على بطلان هذا التعليل، إذ من المسلم به أن كل الأنهار التى تصدر عن ذوبان الثلوج تثير تيارات باردة من الهواء، وتكوّن ضباباً، هو النهر الوحيد الذى لا تعلوه الغيوم الكثيفة، ولا الرياح الباردة ولا الضباب.

أما هيرودوت^(١) فيقول إن منسوب النيل الطبيعى هو ذلك الذى يبلغه أيام الفيضان. ولكن يحدث فى الشتاء أن الشمس عندما تسامت الصحراء الليبية، تبخر كثيراً من مياه النهر فيقل ارتفاعه عن منسوبه الطبيعى. وعندما يأتى الصيف، وتنتقل الشمس فى مدارها إلى الشمال، تجف وتقلل مياه أنهار بلاد اليونان وسائر الأقطار التى تناظرها موقفاً^(٢) وإذن فظاهرة فيضان النيل فى رأيه لاتدعو إلى العجب، لأن النهر لا يرتفع فى حرارة الصيف، بل ينخفض فى الشتاء للسبب المتقدم.

(١) هيرودوت ٢، ٢٥.

(٢) أى التى تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه بلاد اليونان.

وينبغي لنا الآن أن نقول رداً على هيرودوت أنه كما أن الشمس تبخر في الشتاء مياه النيل، يتحتم أن تبخر مياه أنهار ليبيا كذلك، وتخفف من منسوبها. ولما كانت هذه الظاهرة لا تلاحظ في أى مكان في ليبيا، فمن الجلى إذن أن مؤرخنا يلقي الكلام على عواهنه، هذا إلى أن فيضان أنهار بلاد اليونان في الشتاء لا يرجع إلى بعد الشمس عنها، بل إلى كثرة هطول الأمطار في هذا الموسم.

٣٩ يقول ديموقريطس الأبدري^(١) إن الثلوج لا تكسو المناطق الجنوبية كما يعي يوربيديس وأناكساجوراس، بل المناطق الشمالية كما هو واضح لكافة الناس. وإن أكداش الثلج المتركمة في الشمال تظل متجمدة إبان الانقلاب الشتائي. أما في الصيف فتفتت الحرارة الثلوج فتصير كله في حالة ذوبان. وهذه تكون سحاباً كثيفاً في المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث يصعد البخار بكثرة، وهذا السحاب تحمله - كما يقول - الرياح التجارية إلى أن يلقى أعلى جبال العالم، وهي جبال الحبشة في زعمه، وهنا حين يصطدم السحاب بقوة بهذه الجبال يسقط أمطاراً غزيرة، وهي التي تسبب في رأيه فيضان النيل، في موسم الرياح التجارية بالضبط.

من السهل دحض هذه النظرية كذلك بمراجعة ميقات الفيضان بالدقة، فالنيل يبدأ في الارتفاع في الانقلاب الصيفي قبل أن تبدأ الرياح التجارية في هبوبها، ويأخذ في الانخفاض بعد الاعتدال الخريفي، بعد أن يتوقف هبوب الرياح بكثير. فإذا تحطمت النظرية المعقولة أما

(١) معاصر لسقراط وهو أول من ألف من اليونانيين الموسوعات، وصاحب النظرية الذرية.

الحقائق الدقيقة المستقاة من التجربة، وجب علينا مع اعترافنا بنبوغ الفيلسوف أن نحجم عن الأخذ برأيه. وإنى أذكر حقيقة أخرى تلك هي أن الرياح التجارية كما ترى، تهب من الغرب كما تهب من الشمال ذلك أن ما يسمى بالرياح التجارية ليس الرياح الشمالية فحسب أى البورياس والأباركتياس بل الرياح الشمالية الغربية كذلك التي تهب من موضع غروب الشمس صيفاً^(١)، وكذلك ما يقرره من أن جبال الحبشة هي في الواقع أعلى جبال العالم، لا يفتقر إلى دليل فحسب، بل هو أيضاً ليس أهلاً لما يجدر بالحقيقة الملموسة من تصديق^(٢).

ويتحفظنا إيفورس Ephorus بأطرف التفسيرات، ولكنه في سعيه وراء الحجج المقبولة في روايته، يخطئ محجة الصواب كلية. يقول إيفورس إن تربة مصر كلها طميية ومسامية مثل حجر الخفان ملوثة بمسام كبيرة ممتدة، تمتص عن طريقها كميات وفيرة من الماء، وتخزنها طوال فصل الشتاء، أما في فصل الصيف فتفرزها في كل مكان، كجداول من العرق، وهذه تسبب زيادة منسوب النهر. ويبدو لنا أن هذا الكاتب لم يفحص بنفسه طبيعة أرض مصر، ولم يتحر عنها بشئ من الدقة من أولئك الذين خبروا طبيعة هذه البلاد. فأولا، إذا كان النيل يتلقى زيادته من مصر نفسها فليس هناك إذن ما يدعو إلى فيضانه في مجراه الأعلى حيث ينساب النهر من أرض صخرية جرداء. والواقع من الأمر أن النهر يفيض قبل أن يصل إلى مصر في مجراه الممتد إلى

(١) أى الشمال الغربي

(٢) يعنى أنه ليس لدينا دليل ملموس على شدة ارتفاع جبال الحبشة.

أكثر من ستة آلاف استاد من أراضى الحبشة. وثانياً، لو كان قعر النهر أكثر انخفاضاً من مسام التربة الطميية، لبدت المسام إذن على سطح الأرض وأصبح من المتعذر أن تحتفظ بهذه الكميات الكبيرة من الماء في باطنها. أما إذا كان النهر أعلى من مستوى المسام، تعذر تسرب المياه من المستوى المنخفض إلى مياه النهر العالية. وبالجملة، فهل يعقل أن ما تفرزه الأرض من مسامها يمكن أن يزيد من مياه النهر إلى حد أنه يغمر كل مصر تقريباً. وإنى أجاوز قول إيفورس الفاسد عن التربة الطميية والمياه التي تخزن في مسامها فبطلانه بين جلي. ففي آسيا مثلاً قد كون نهر مياندر مساحة كبيرة من التربة الطميية ولكن لم تلاحظ فيما يتصل به من ظاهرات، ظاهرة واحدة تشابه فيضان النيل. وكذلك الحال بالنسبة لنهر أخيلوس في أكرانيا ونهر كيفيسوس في بيوشيا الذي ينبع من فوكيس، فإن كليهما كونا مساحات واسعة من التربة الطميية وهما يقدمان برهاناً قاطعاً على فساد نظرية المؤرخ. وعلى أى حال، فلا ينبغي لأحد أن يطلب الدقة عند إيفورس بعد أن رأينا أنه لا يعبا كثيراً باستقراء الحقيقة في كثير من المسائل.

م وحاول بعض فلاسفة منف أن يأتوا بتفسير لظاهرة الفيضان، فجاء تفسيرهم غير معقول بالرغم من تعذر دحضه، وقد أخذ به الكثيرون. فهم يقسمون الأرض إلى ثلاث مناطق، إحداها تكون عالماً المسكون هذا، والثانية تكون فيها الفصول بعكس ما تكون عندنا تماماً، أما الثالثة وتقع بين الاثنتين فلا يسكنها الناس لشدة حرارتها. فلو أن النيل يفيض في الشتاء لكان من الجلي أنه يتلقى هذه المياه الزائدة من

المنطقة التي نعيش فيها لأن الأمطار الغزيرة تسقط عندنا في هذا الفصل على الخصوص. ولكن فيضان النهر، على العكس من ذلك، يكون في فصل الصيف، فمن المرجح إذن أن أعاصير الشتاء تتجمع في المنطقة المقابلة (الجنوبية) وينساب ما يزيد من مياه هذه المنطقة البعيدة إلى عالمنا هذا، وهذا فيما يقولون هو السبب في أنه ما من أحد استطاع أن يصل إلى منبع النيل لأنه ينساب في المنطقة المقابلة لنا، ثم يجري إلينا عن طريق المنطقة غير المكونة. ولقد اتخذوا من فرط عذوبة مياه النيل شاهداً على صحة دعواهم، لأن ماء النهر يلف في مجراه في المنطقة الحارة بتأثير الحرارة، وهكذا كان النيل أعذب الأنهار جميعاً، إذ من الطبيعي أن الحرارة تطف جميع السوائل.

وهناك حجة قريبة لدحض هذا الوهم، فمن الجلي أنه من غير المعقول أن ينساب نهر مصعداً في عالمنا المعمور هذا، من المنطقة المعمورة المقابلة لنا، خصوصاً إذا أخذنا بنظرية أن الأرض كروية الشكل. وحتى إذا تعسف المرء في استدلاله، وضرب بالحقيقة السافرة عرض الأفق، ما أفسحت طبائع الأشياء عن الطريق لهذه النظرية. وبالجملة، فإنهم يتوهمون أنه بوضعهم العالم الخلاء بين المنطقتين المعمورتين، قد أتوا بنظرية لا تقبل التجريح، إذ أبعدا بينها وبين البحث التجريبي الدقيق. ولكن ينبغي لمن يتعسف في نظرياته في بعض المسائل أن يأتي بالدليل عليها من الحقيقة الواقعة، أو يقيم وبراهينه على فروض تدعو إلى التصديق لأول وهلة. فكيف تأتي لنهر النيل أن يكون النهر الوحيد

الذى يجرى من ذلك العالم المعمور المقابل إلى عالمنا؟ فمن المعقول أن يكون هناك أنهار أخرى تماثله كما هو الحال عندنا. هذا إلى أن الأسباب التى يعزون إليها عذوبة مياه النهر سخيفة جداً. فلو أن النهر اكتسب عذوبة مياهه بفعل الحرارة، لما كان كما هو الآن مخصباً يغذى جميع أنواع الأسماك والحيوان. ذلك أن جميع الأمواه التى تتغير طبيعته بتأثير العنصر الحرارى تفقد قدرتها على إنماء الكائنات الحية. وإذن، فحيث إن طبيعة النيل تنقض تماماً نظرية تأثير مياهه بالحرارة فيجب أن نعتبر ما أوردوا من أسباب للفيضان فاسداً.

ويقر أوينوبيديس Oeneopides^(١) الخيوى أن الماء الجوفى يكون بارداً فى الصيف، أما فى الشتاء فيكون على العكس حاراً كما نرى بوضوح فى ماء الآبار العميقة، ففى منتصف الشتاء يكون ماؤها أبعد ما يكون عن البرودة، أما فى حمارة الصيف فيستنبط منه ماء بارداً جداً. فمن المعقول فى رأيه إذن أن ينخفض النيل فى الشتاء ويقل ماؤه. حيث تستهلك حرارة الأرض أكثر مائه، وليس فى مصر أمطار، أما فى الصيف، وليس هناك من استهلاك للماء فى باطن الأرض فيزيد النهر ماشاء. ونقول فى الرد على هذه النظرية إن كثيراً من أنهار ليبيا التى تناظر نهر النيل فى موقع مصباتها ومجراها، يشابه مجراه، لا تفيض بالرغم من ذلك مثله، بل بالعكس تزيد فى الشتاء وتنخفض فى الصيف، فهى تقدم برهاناً على عبث محاولة خنق الحقيقة بالمنطق المعقول.

(١) فلكى ورياضى عاش فى القرن الخامس ق.م

أما أجاثارخيديس Agatharchides^(١) الأكنيدى فقد كان أقرب إلى لإصابة الحقيقة من سواه، فهو يقرر أن الأمطار تهطل كل عام على جبال الحبشة مستمرة من الانقلاب الصيفى إلى الاعتدال الخريفى، فمن المعقول إذن أن ينقص النهر فى الشتاء لأنه يستمد مياهه حينئذ من ينابيعه فقط، أما فى الصيف فيزيد بسبب الأمطار التى تتدفق إليه. فإذا لم يكن أحد استطاع إلى وقتنا هذا أن يعلل أسباب سقوط هذه الأمطار فليس ذلك - فيما يقول - بمبرر فى رفض رأيه الشخصى هذا لأن الطبيعة تأتى بكثير من المتناقضات، ومن المتعذر على الإنسان أن يبين أسبابها بدقة ويؤيد نظريته - فيما يعتقد - ما يحدث من ظاهرات فى بعض أصقاع آسيا. فعلى حدود سكيثيا Scythia عند اتصالها بجبال القبح Caucasus يحدث سنوياً - بعد انقضاء فصل الشتاء - أن تنهمر كميات بالغة من الثلوج أياماً كثيرة متتالية، ويحدث فى بعض الفصول أن يسقط البرد على سفوح الهند الشمالية فى حجوم وكميات لا يتصورها العقل. وتهطل الأمطار باستمرار بالقرب من نهر هيداسيبس Hedsapes فى أول فصل الصيف، وبعض أيام قلائل يتكرر الأمر نفسه فى بلاد الحبشة. وهذه العوامل الحيوية التى تحيط دائماً بالمنطقة كلها تسبب المناخ الشتوى هناك، فليس إذن ما يدعو إلى العجب - فى زعمه - من أن الأمطار تهطل باستمرار فوق جبال الحبشة، وهى أكثر ارتفاعاً من مصر، فتندحر فى فصل الصيف، وتزيد فى مياه النهر، خصوصاً وأن أهل تلك البلاد يؤيدون هذه الحقيقة الواضحة. فبالرغم من أن ما يقررونه

(١) مؤرخ وجغرافى عاش فى القرن الثانى ق.م.

يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحٌ إعصاريةٌ، تسبب في الحبشة جواً صحواً، والرياح الشمالية في أوروبا عاتيةٌ، في حين أنها في تلك البلاد بليلةٌ عليلةٌ. والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلةً أخرى رداً على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفي بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه باديةً ذى بدء من حدود الاختصار. ولما كنا قد قسّمنا هذا الكتاب - لطوله - إلى قسمين حرصاً منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسنهني هنا هذا القسم من تاريخنا هذا. وسنورد في الجزء التالي بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة في مصر في أقدم العصور.

الجزء الثاني

٤٢ إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم - لضخامته - إلى جزئين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين في نشأة الكون، وتكوين العالم في البدء، وفي الآلهة التي أنشأت في مصر مدناً ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم في الأناسى الأول، وفي أسلوب الحياة في العصر القديم، وفي عبادة الآلهة الأزلية، وفي بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التي تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة في ذلك. ويحتوى كذلك على تنفيذ كل آراء المؤرخين والفلاسفة في

ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل من آراء هؤلاء واحداً بعد واحد^(١). وسنسرده في هذا الجزء بقية ما أسلفنا، مبتدئين بملوك مصر الأول، وسنذكر أعمال كل منهم إلى عهد أمازيس، بعد أن نصف باختصار أسلوب الحياة في مصر في أقدم العصور.

٤٣ أما عن طريقة معيشتهم في العصر القديم، فيحكى أنهم كانوا يتخذون أكلهم في ذلك العهد السحيق القدم من الحشائش وسوق نباتات المستنقعات وجذورها، بعد الاطمئنان إلى مذاقها، ولقد كان النبات المسمى أجروستيس^(٢). أول وأهم ما أضافوه إلى أكلهم، ذلك لامتيازه بشدة الحلاوة، ولأنه غذاء كاف لجسم الإنسان. ولاحظوا كذلك أنه مفيد للماشية، يزيد وزنها بسرعة. وعرفنا بفضل هذا النبات يحمله المصريون عندما يتوجهون للآلهة ويصلون. وقد كانوا يعتقدون أن الإنسان من هوام المستنقعات والبرك، مستدلين على ذلك بطراوة بشرته، وبعوض الخواص الطبيعية الأخرى. وبأنه أحوج إلى الطعام الرطب منه إلى الطعام الجاف. ويقال إن السمك كان ثانياً ما أقام به المصريون أودهم، ويزودهم النيل بكميات وفيرة منه، خصوصاً بعد الفيضان حينما ينخفض النهر ويجف^(٣). وكذلك يأكلون لحم بعض الأنعام، ويتخذون من جلودها لباساً، وكانوا يصنعون بيوتهم من الغاب، ولم تزل آثار هذه العادة باقية

(١) يكاد يكون من المحقق أن هذه الفقرة ليست من قلم ديودور. ولكن الكلام الذي يليها لا يتسق مع نهاية الفصل الحادى والأربعين وهو نهاية الجزء الأول.

(٢) هو النجيل، وفى اللاتينية Cynodon Dactylon

(٣) يشير إلى جفاف المستنقعات التى يخلفها فيضان النهر.

بين الرعاة المصريين، فهل إلى الآن لا يصنعون بيوتهم - فيما يقال - إلا من الغاب، واجدين في ذلك كفايتهم. وبعد أن أمضى المصريون أجيالاً عديدة ملتزمين هذا الضرب من الحياة فطنوا أخيراً إلى ما يصلح للأكل من محصول الأرض، ومن بينها الخبز المصنوع من البشنيين. وينسب البعض هذا الاكتشاف إلى إيزيس، بينما ينسبه البعض الآخر إلى أحد الملوك القدماء وهو المدعو مينا، ويروى الكهنة في أساطيرهم أن هرمس ابتكر العلوم والفنون، بينما استنبت الملوك ما كان ضرورياً لإقامة الأود. ولذلك لم يكن يؤول الملك في العصور القديمة لأولاد الملوك، بل للذين يؤدون أعظم الخدمات، وذلك إما لأن القوم كانوا يحثون ملوكهم على أداء الخير العام، وإما لأنهم حقيقة وجدوا في كتبهم المقدسة نصاً بهذا المعنى. **ع** ويروى بعضهم أنه في البدء حكم مصر الآلهة والأبطال

لمدة تقل قليلاً عن ثمانية عشر ألف عام، وأن حورس بن إيزيس كان آخر من حكم مصر من الآلهة، ويقال إن البشر حكموا البلاد بعد ذلك فترة تقل قليلاً عن خمسة آلاف عام، وتمتد إلى الأولمبياد الثمانين بعد المائة^(١)، حينما زرت مصر في عهد بطليموس المسمى نيوس ديونيسيوس^(٢)، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش والفرس والمقدونيين^(٣)، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش، ولكن بغير

(١) الأولمبياد ال ١٨٠ = ٦٠-٥٦ ق.م

(٢) هو بطليموس الحادي عشر حكم مصر من ٨٠-٥١ ق.م ويعرف ببطليموس الزمار.

(٣) حكم الأحباش مصر من ٧١٥-٦٦٣ ق.م تقريباً وهو عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وحكمها الفرس من ٥٢٥-٣٣٢ ق.م وحكمها المقدونيون من ٣٣٢-٣٠ ق.م.

اطراد في فترات متقطعة، ومجموع سنني حكمهم يقل قليلا عن ست وثلاثين سنة. وبعد أن قهر قمبيز البلاد بقوة السلاح، حكم الفرس مصر خمسًا وثلاثين ومائة سنة، بما في ذلك عهود ثورات المصريين التي أشعلوها لعدم استطاعتهم احتمال قسوة حكم الفرس، ولتجديف هؤلاء بآلهة البلاد. وحكم المقدونيون، وهم آخر من حكم البلاد، ستة وسبعين ومائتي عام. وفيما عدا هذه الفترات تولى الملك ملوك من أهل البلاد، عددهم سبعون وأربعمائة ملك، وخمس ملكات. واحتفظ الكهنة في كتبهم المقدسة التي يتوارثونها بانتظام من قديم الزمان جيلا بعد جيل بوثائق عن هؤلاء جميعاً، تروى عن مبلغ جرم كل منهم، وعن شاكلته، وعمّا قام به في عهده من أعمال. وإذا نحن تحدثنا بالتفصيل عن كل منهم، كانت مهمتنا طويلة شاقة، وقد تكون بغير طائل كذلك، لأن أكثر هذه الوثائق عديم القيمة، ولذلك سنحاول أن نسرد باختصار أكثر هذه الروايات جدارة بالتسجيل.

٤٥ يقول المصريون إن مينا خلف الآلهة على حكم مصر، وهو الذي علم عامة الناس كيف يعبدون الآلهة، وكيف يقربون الأضاحي. هذا، وقد استحدث المناضد والسرر واستعمال الأغذية الثمينة. وبالجملة، فقد أدخل الترف وحياة البذخ، ويقال إن تنفاخثوس Tnephachthus^(١) أبوبخوريس Bbocchoris، الحكيم الذي تولى ملك مصر بعد ذلك العهد بأجيال عديدة، قام بحملة على بلاد العرب، ولما نفذت المؤن، بسبب

(١) تنفاخثوس هو تفاخت حكم حوالي ٧٣٠ ق.م.

محل المنطقة ووعورتها، اضطر أن يبقى يوماً واحداً بلا زاد وأن يقنع بحياة غاية فى التقشف بين من التقى بهم من عامة الشعب، ولقد سر لذلك غاية السرور، فأنكر الترف ولعن الملك الذى كان أول من أدخل البذخ، ولقد أثر هذا التغيير فى الأكل والشرب والنوم فى نفسه إلى حد أنه نقش لعنته باللغة الهيروغليفية على معبد الإله زيوس فى طيبة ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن شهرة الملك مينا ومجده لم يبقيا على مدى العصور التالية. وخلفت الملك المذكور - فيما يقال - سلالته، وهى فى مجموعها اثنان وخمسون ملكاً، حكموا أكثر من أربعين وألف عام، ولم يحدث فى عهدهم ما يستحق الذكر. وبعد ذلك تولى بوسيريس Busiris الملك وخلف ثمانية من ذريته كان آخرهم سميا له، وهو الذى أنشأ فيما يقال المدينة التى يسميها المصريون مدينة زيوس الكبرى ويسميها اليونانيون طيبة. وقد جعل محيطها ١٤٠ ستادا وجملها تجميلاً رائعاً، بإقامة المباني الضخمة والمعابد الفخمة وغيرها من الآثار. وأقام كذلك مساكن خاصة بعضها مؤلف من أربعة طوابق والبعض الآخر من خمسة. وبالجملة، فقد جعل من هذه المدينة أجمل المدن لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع. ويرجع الفضل إلى غناها وقوتها فى أن شهرتها بلغت جميع الأصقاع حتى إن الشاعر ذكرها فى شعره حيث يقول:

« لا ولا كل ثروة طيبة المصرية، التى أمتلأت خزائنها أيما امتلاء، طيبة ذات المائة باب، التى ينطلق من كل باب منها،

مئات محارب بخليهم ومركباتهم^(١). ويقول البعض إن المدينة لم تكن ذات مائة باب فعلاً، وإنما كان لمعابدها مداخل خارجية كثيرة وعظيمة، ومنها نشأت تسميتها بذات المائة باب، كأنها ذات أبواب كثيرة. والواقع أن عشرين لألف عجلة حربية كانت تنطلق منها إلى الحرب، فقد كان على طول ضفة النهر من منف إلى طيبة في الناحية الليبية مائة حظيرة للخيل تتسع كل منها لمائتي حصان، وما زال أساس هذه الحظائر بادياً إلى الآن^(٢).

٦٤ ولم يؤثر عن هذا الملك وحده الاهتمام بتجميل طيبة، بل لقد وجه الكثيرون ممن خلفوه في الحكم اهتماماً خاصاً بتقدم هذه المدينة. فلم تزين مدينة أخرى تحت الشمس بمثل ما زينت به من النصب العديدة الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب والعاج أيضاً، والتماثيل الضخمة، ومجموعات المسلات المنحوتة من حجر واحد. ومن بين المعابد الأربعة التي أقيمت في هذه المدينة يروع أقدمها^(٣) لجماله وضخامته، فمحيطه ١٣ ستادا وارتفاعه ٤٥ ذراعاً وسمك جدرانها ٢٤ قدماً، وبهاء نصبه الداخلية متناسب مع تلك العظمة. فهذه النصب تروع بباهظ نفقاتها، وبما بلغت من منتهى الدقة في صناعتها. ولقد ظلت تلك المباني قائمة إلى عصور متأخرة جداً، أما الفضة والذهب

(١) هوميروس الإلياذة ٩ ، ٣٨١-٣٨٤

(٢) يرى بعض النقاد أن الجملة من « ويقول البعض... إلى ... إلى الآن » ليس من قلم ديودور والواقع أن قوله « في الناحية الليبية » لا ضرورة له.

(٣) يعني بغير شك معبد آمون في الكرنك.

والمصنوعات العاجية الثمينة، والأحجار الكريمة فقد انتهبها الفرس عندما أحرق قميميز المعابد المصرية. ويقال إن الفرس نقلوا حينئذ هذه الثروات إلى آسيا وجلبوا الصناعات من مصر ليبتنوا لهم قصورهم الشهيرة في برسيوليس وسوسا وميديا. ويقال إن ثروة مصر كانت في هذا العهد عظيمة إلى حد أنه بعد أن أتت النيران على ما تركته يد النهب، جُمع ما بقي بدقة بعضه إلى بعض ووجد أنه يقوم بأكثر من ثلثمائة طالنت من الذهب وبما لا يقل عن ثلثمائة وألفين طالنت من الفضة. وهناك فيما يقولون مقابر رائعة للملوك القدماء، ولم تدع لمن خلفهم من الراغبين في محاكاتهم في مضمار العظمة، مجالاً للسبق. ويقول الكهنة إنهم يجدون فيما بين أيديهم من وثائق أنه كان يوجد سبع وأربعون مقبرة ملكية بقي منها إلى عهد بطليموس بن لاجوس^(١) فيما يقولون سبع عشرة مقبرة. كان أكثرها قد تهدم عندما زرنا هذه المناطق في الأولمبياد الثمانين بعد المائة. وليس الكهنة المصريون وحدهم هم الذين يقصون ذلك اعتماداً على وثائقهم، بل إن الكثيرين من اليونانيين الذين زاروا طيبة في عهد بطليموس بن لاجوس وكتبوا في التاريخ المصري ومن بينهم هيكتايوس HECATAEUS^(٢) يوافقون على ما أوردت.

(١) بطليموس الأول حكم مصر ٣٢٣ - ٢٨٥ ق.م.

(٢) هيكتايوس الأبدري مؤرخ من القرن الثالث ق.م. وكتابه «مصريات» من المصادر التي اعتمد عليها ديودور اعتماداً كبيراً.

٤٧ يقول هيكتايوس إنه على بعد عشرة ستاد من المقابر الأولى، التي يؤثر أنها تضم رفات خليلات زيوس يقوم نصب لملك يدعى أوزيماندياس Osymandyas^(١) وعند مدخله دهليز من الرخام الملون طوله ٢ بليثرون، وارتفاعه ٤٥ ذراعاً، وفي نهايته يوجد بهو مربع الشكل من الحجر طول كل من أضلاعه ٤ بليثرون، يقوم على غير المألوف على تماثيل حيوانات مقطوعة من كل حجر واحد، طول كل منها ١٦ ذراعاً، منحوتة على الطراز القديم، والسقف كله مقطوع من حجر واحد، وعرضه باعان مغطى باللون الإسمانجونى وموشى بالنجوم. ويلى البهو مدخل آخر وممر يشبه الممر الذى سبق وصفه من جميع الوجوه، ولكنه يمتاز عليه بدقة ما حفر فيه من صور جميع الأشكال. وبجانب المدخل ثلاثة تماثيل، مقطوع كل منها من حجر واحد أسود أسوانى، من بينها تمثال جالس هو أكبر تماثيل مصر جميعها^(٢). فطول قدمه يزيد على سبع أذرع. أما التمثالان الآخران فينتصبان بحذاء الركبتين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وهما لابنته وأمه، وهما أصغر من الأول حجماً. وهذا الأثر جدير بالتنويه لا لضخامته فحسب، بل لباهر صناعته ولطبيعة الحجر الممتازة، فبالرغم من ضخامته هذه لا يوجد به شذخ أو عيب واحد. وقد نقش عليه «أنا أوزيماندياس، ملك الملوك، إذا أراد أحد أن يعرف مبلغ عظمتى، وأن يعلم أين أرقد فليبرزنى فى واحد من

(١) الكلام على معبد الرسيوم فى الأقصر، ويظهر أن لفظ أوزيمانديماس مأخوذ من أوزير مارع، أحد ألقاب رمسيس الثانى الملكية.

(٢) تقدر زنة هذا التمثال بألف طن وهو لرمسيس الثانى.

أعمالي». وهناك أيضاً تمثال آخر لأمه ينتصب متفرداً، مقطوع من حجر واحد طوله عشرون ذراعاً. وهي تكلل رأسها بثلاثة تيجان ترمز إلى أنها بنت ملك، وزوج بنت ملك، وأم ملك، وفي هذا الممر يوجد بهو آخر أجدر من الأول بالذكر، حفرت فيه صور في جميع الأوضاع تمثل حربه ضد ثوار بكتريا (بلخ) Bactria، فقد استقل ضدهم جيشاً مؤلفاً من أربعمئة ألف راجل، وعشرين ألف فارس، وقسم الجيش كله إلى أربع فرق، وضعت كل واحدة منها تحت إمرة أحد أبناء الملك^(١).

وقد صور الملك على الحائط الأول لهذا البهو محاصراً قلعة يحيط بها نهر، وقد انبرى في الصف الأول لمن تصدى له، وبجانبه سبع يشد أزره، ويشيع الرعب من حوله. ويقول بعض مفسري هذه الرسوم، إن السبع أليف تربى على يدي الملك، وقام بنصيبه من مخاطر القتال، وجعل الأعداء يولون الأدبار خشية بطشه. ويقول البعض الآخر، إنه لما كان الملك بالغ البأس وأراد أن يمتدح نفسه بطريقة مبتذلة، فقد أبرز جبلته على صورة سبع.

أما الحائط الثاني فيرينا أسرى الحرب^(٢) الذين اقتنصهم الملك. وقد خُصوا وقطعت أيديهم. ولعل في ذلك إشارة إلى وهن عزيمتهم، وقلة حيلتهم في مواجهة الأخطار. ونقشت على الحائط الثالث صور مختلفة ورسوم رائعة تمثل الملك يضحى ثيراناً، وتصور الانتصار الذي

(١) هذا وصف حملة رمسيس الثاني ضد الحيثيين سنة ١٢٨٨ ق.م. ويقدر عدد المصريين فيها إلى عشرين ألف مقاتل.

(٢) لقد قطعت أيدي قتلى الحرب لا الأسرى

أحرزه في الحرب. وفي وسط هذا البهو أقيم مديح تحت قبة السماء، من أحسن أنواع الرخام، دقيق الصنع بالغ الحجم. وفي ناحية الحائط الرابع يوجد تمثالان جالسان، قطع كل منهما من حجر واحد، طوله سبع وعشرون ذراعاً، وعلى جوانب هذين التمثالين توجد ثلاث ممرات تفضى من هذا البهو إلى بهو الأعمدة المشيد على نسق بهو الموسيقى Odeum، وطول كل من أضلاعه مائتا قدم وفيه مجموعة من التماثيل الخشبية تمثل خصوصاً تعلقت أعينهم بقضائهم، وهؤلاء القضاء مصورون على أحد الجدران^(١) وقد بلغوا الثلاثين عدداً، ويتوسطهم قاضى القضاء وقد عصبت عيناه وتدلست صورة «الحق» من رقبته وتدلست كثير من الكتب. وترمز هذه الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة، وأن قاضى القضاء يجب ألا يعير شيئاً سوى الحق التفتاته.

٩١ ويلى هذا البهو رواق ذو غرف عديدة مختلفة تعد فيها المأكولات اللذيذة من جميع الألوان، وتوجد فى هذا الرواق رسوم أيضاً، فقد مثل الملك بألوان زاهية وهو يقدم للآلهة ذهباً وفضة، هى الدخل السنوى من جميع مناجم الفضة والذهب فى مصر. ويبين النقش المكتوب تحت الرسم قيمة هذا الذهب والفضة التى تبلغ اثنين وثلاثين مليون من الفضة. ويلى هذا الرواق المكتبة المقدسة وقد كتب على وجهتها «مصحح الروح» ويجوار المكتبة ترى صور جميع آلهة مصر، ويرى الملك كما فى الصورة السابقة وهو

(١) يضيف بعض النقاد هنا كلمة «بغير أيدى» حتى يستقيم معنى رمز الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة.

يقدم لكل منهم ما هو جدير به ، وكأنه يشهد أوزوريس ومعاونيه في العالم السفلى على أنه قضى حياته في البر وصالح الأعمال نحو الناس والآلهة جميعاً. وفي ملاصقة المكتبة بنيت غرفة في غاية الأناقة ، بها عشرون سريراً ، وفيها صور تمثل زيوس وهيرا والملك أيضاً ، ويظهر أن الملك كان قد دفن هنا. وحول هذه الحجرة ، بنيت عدة غرف صغيرة بها رسوم رائعة لجميع صور الحيوانات المقدسة في مصر. ويقضى طريق صاعد من بين هذه الغرف إلى المقبرة نفسها ، عند نهايته توجد عند الضريح حلقة ذهبية محيطها خمس وستون وثلاثمائة ذراعاً وسمكها^(١) ذراع واحدة ، حفرت عليها - على مسافات متساوية طول كل منها ذراع واحدة - أيام السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها كما تقضى الطبيعة ، ومواقيت الفصول مستخرجة منها بحساب علم الهيئة المصرى. ويقال إن الفرس سرقوا هذه الحلقة عندما غزا قمبيز مصر.

هكذا ضريح الملك أوزيماندياس الذى لم يبز سائر الضرائح فى باهظ نفقاته فحسب بل فى تفنن الصناعات فيه أيضاً.

٥٥ ويدعى أهل طيبة أنهم أعرق الناس جميعاً فى القدم ، وأن الفلسفة نشأت بينهم أولاً ، وكذلك علم الهيئة الدقيق وذلك لأن جو بلادهم ساعدهم أن يروا بجلاء طلوع النجوم وغروبها. ويقولون كذلك إن الشهور والسنين مقومة عندهم بطريقة خاصة ، فهم لا يحسبون اليوم بالقمر بل بالشمس ، والشهر عندهم ثلاثون يوماً ، ويضيفون فى

(١) الأولى أن يقول « عرضها »

حسابهم خمسة أيام وربعاً كل اثني عشر شهراً، وبذلك يُتمون مدار السنة، فهم لا يزيدون شهوراً إضافية ولا يقطعون أياماً كما يفعل أكثر اليونانيين، ويظهر أن ملاحظتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر دقيقة، فهم يتكهنون بحدوثهما قبل أوأنيهما، ويتنبأون بكل جزئيات هاتين الظاهرتين بكل دقة.

ولقد أنشأ الثامن من سلالة هذا الملك ويدعى أوخوريوس Uchoreus مدينة منف أشهر المدن المصرية. فقد اختار لها أنسب موقع في البلاد كلها، حيث يتشعب النيل إلى فروع عديدة ويكون الدلتا التي سميت كذلك لشكلها. وهكذا أصبحت المدينة لحسن موقعها عند مفتاح البلاد مسيطرة على السفن التي تبحر جنوباً. وشيد حول المدينة سوراً طوله ١٥٠ ستادا شديد المتانة عظيم الفائدة. وابتناه بالطريقة التالية: لما كان النيل يجري حول المدينة، ويغمرها عندما يفيض فقد أقام في الجنوب سداً عظيماً يكون عند الفيضان بمثابة حاجز لمياه النهر، وحصناً ضد الأعداء في غير وقت الفيضان، ثم احتفر حول جميع الجوانب الأخرى للمدينة بحيرة واسعة عميقة، ولما امتلأت هذه من ماء النهر المتدفق، وغمرت كل المساحة المحيطة بالمدينة فيما عدا الجانب الذي أقام فيه السد، هيأت للمدينة موقعاً شديد المناعة. ولقد كان خيال منشي منف صادقاً في التكهن بملاءمة هذا الموقع إلى حد أن كل الموك تقريباً الذين خلفوه هجروا طيبة واتخذوا منف قاعدة ومقرّاً لبلادهم. وإلى هذا يرجع السبب في أنه من ذلك الحين بدأت شهرة طيبة في الذبول^(١) في حين

(١) لم يستطع دايودور - وشأنه في ذلك شأن سائر المؤرخين اليونانيين - أن يكون فكرة صحيحة عن التاريخ المصري، فطيبة لم تزدهر إلا في عصر الأسرة الثامنة عشرة في حين أن =

ظلت شهرة منف في ازدياد إلى عهد الإسكندر الذي أنشأ على ساحل البحر المدينة التي سميت بأسمه، وتنافس خلفاؤه على عرش مصر جميعهم في العمل على زيادة روعتها، فزينها بعضهم بالقصور الفخمة، والبعض الآخر بأحواض السفن والموانئ، والبعض الآخر بمختلف النصب التذكارية والمباني الرائعة حتى إن أكثر الناس يعتبرونها أولى مدن العالم أو ثانيها. حسبى هذا الآن، فسأصف المدينة بالتفصيل المناسب، وبعد أن هياً منشئ منف هذا السد وهذه البحيرة، ابتنى قصرًا لا يقل شأنًا عن غيره في البلاد الأخرى. ولكنه لا يتناسب مع أريحية أسلافه ولا مع ما أبدوه من شغف بالجمال.

٥٩ ويعتقد المصريون أن هذه الحياة الدنيا في غاية التفاهة، ولكنهم يعلقون الأهمية الكبرى على الحياة الأخرى التي تجعلها الفضيلة شيئًا مذكورًا. وهم يسمون بيوت الأحياء منازل، لأنهم يقطنونها مدة قصيرة، بينما يسمون قبور الموتى المساكن الدائمة، لأننا نكمل حياتنا إلى الأبد في العالم السفلي. وإلى هذا يرجع السبب في قلة اهتمامهم بأثاث بيوتهم في حين أنهم لا يجارون في اهتمامهم بقبورهم. ويذهب البعض إلى أن مدينة منف قد سميت كذلك نسبة إلى ابنة الملك الذي أنشأها، فقد تواترت الروايات بأن نهر النيل أغرم بها، فاتخذ هيئة ثور، وأنجب منها إيجيببتوس الذي أعجب به المصريون لفضائله وسميت البلاد جميعًا باسمه. ولما اعتلى العرش كان رعوفاً عادلاً، وفاضلاً من جميع الوجوه. فأجمع الناس كلهم على أنه جدير بعظيم = منف كانت عاصمة الأسرات الأولى.

التقدير، ولذا فقد حظى من أجل برّه هذا بذلك المجد الذى ذكرت. وبعد ثمانية أجيال من عهد إيجيبتوس ارتقى عرش مصر مويريس^(١) Moeris الذى ابنتى الجناح الشمالى من معبد منف، وقد بز سائر الأجنحة جميعها بهاء وروعة. واحتقر على بعد ١٠ سخينوس Schoeni من جنوب هذه المدينة بحيرة عظيمة الفائدة، ولو أنها تطلبت مجهوداً لا يتصوره العقل.

فيقال إن محيطها ٣٦٠٠ ستاد وعمقها فى الأكثر خمسون باعاً. فمن ذا الذى يستطيع أن يتصور ضخامة هذا العمل دون أن يكون محقاً فى تساؤله كم من عشرات الألوف من الرجال استخدموا، وكم من السنين استنفدت لتنفيذ هذا المشروع؟ حقاً لا يستطيع المرء أن يفى هذا المشروع الملكى، الذى أضفى على سكان مصر جميعاً كل هذا الخير والمنفعة، حقه من الثناء.

٥٧ ولما كان النيل لا يرتفع دائماً إلى منسوب معين، وكان غنى البلاد متوقفاً على مستوى انتظام ارتفاعه، فقد احتقر الملك هذه البحيرة لتخزين المياه الزائدة حتى لا يغمر النهر البلاد بتيابه القوى فى غير أوان الحاجة فيكون البرك والمستنقعات، وحتى لا يهلك الزرع لقلّة المياه إذا لم يرتفع إلى المستوى المطلوب. واحتقر قناة فيما بين النهر والبحيرة طولها ٨٠ ستادا وعرضها ثلاث بلثرونات، وبوساطة هذه القناة كان يطلق أحياناً مياه النهر فى البحيرة. وكان أحياناً يغلقها، وبذلك

(١) هو فيما يظهر أمنمحات الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة. والحديث حول منخفض الفيوم، وبحيرة قارون.

كان يزود الفلاحين بالمياه في الموسم المناسب بفتح البوغاز وغلقة بطريقة فنية، ولكنها في الوقت نفسه كثيرة التكاليف، لأنه كان يلزم لمن يريد فتح أو غلق هذا البوغاز لا أقل من خمسين طالنت. وقد ظلت البحيرة تفي بحاجة المصريين إلى وقتنا هذا وهي تحمل اسم محتفرها، فهي تسمى إلى الآن بحيرة مويريس. وبعد فين كان الملك يحفر هذه البحيرة ترك في وسطها بقعة ابنتي عليها قبرا وهرمين، أحدهما لنفسه والآخر لزوجها، ارتفاع كل منهما ستاد واحد، وأقام على رأس كل منهما تمثالاً من الحجر جالساً على العرش، معتقداً أنه بإقامة هذه الآثار سيخلف بعده تذكراً خالداً لأعماله المجيدة. ووهب ما يجبي من الضرائب على الصيد في البحيرة لزوجها لتنفقه على عطورها وأسباب زينتها الأخرى. وقد بلغت قيمة ما يصاد في اليوم الواحد منها طالنتاً من الفضة. إذ في البحيرة - فيما يقال - اثنان وعشرون نوعاً من السمك، وهي تستخرج بكميات وفيرة إلى حد أن الذين يعملون في حفظها على كثرتهم البالغة، كانوا يؤدون واجبهم بشق الأنفس. تلك إذن هي الرواية التي يحكيها المصريون عن مويريس.

٥٣ ويقال إنه بعد سبعة أجيال تبوأ سيسوسيس Sesosis^(١) العرش وقام بأعمال عظيمة طغى صيتها على ما قام به أسلافه، وقد تضاربت الآراء بصدد هذا الملك بين مؤرخي اليونان، والمصريون أنفسهم لم يستقروا بشأنه على قرار سواء في ذلك الكهنة أو الشعراء الذين مدحوه.

(١) يسميه هيرودوت سيوستريس. وهرودوت هنا يخلط بينه وبين رمسيس الثاني ولكن الاسم على الأرجح مأخوذ من اسم سنوسرت الثالث أو أوسرتسن من فراعنة الأسرة الثانية عشرة.

وسنحاول من جانبنا أن نثبت أكثر الروايات ترجيحاً وأشدّها اتفاقاً مع آثاره التي ما زالت قائمة في البلاد. عند ولادة سيسوسيس قام أبوه بعمل ملكى باهر إذ جمع من كل أنحاء مصر الأطفال الذكور الذين ولدوا في نفس اليوم ووكّل بهم مرضعات ومربين، وخصهم جميعاً بتربية وتعليم واحد، وقد كان سلوكه هذا قائماً على فرض أن الذين ينشأون معاً في خلطة وطيدة، متمتعين بقدر واحد من حرية وإعلان الرأى يكونون أشد الناس إخلاصاً وأشجع الأقران في الحرب، وكفل للأولاد ما يلزمهم بسخاء، ودرّبهم برياضة ومشاق لا تنقطع، ولم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع ثمانين ومائة ستاد جريباً، ولذلك، كانوا حين بلغوا مبلغ الرجال، صناديد أقوياء الجسم، جديرين لسمو أنفسهم بالقيادة، قادرين على احتمال المشاق لما درّبوا عليه من سامى الأغراض. وبدأ سيسوسيس بأن أوفده أبوه صحبة أترابه على رأس حملة إلى بلاد العرب، وبعد أن تحمل أهوال صيد الحيوانات المفترسة، وعانى مشاق نفاذ الماء وندرة الغذاء من حين إلى حين، غزا كل الشعب العربى، الذى لم يسبق أن استعيد من قبل ذلك العهد، ولما أنفذ بعد ذلك إلى الأقاليم الغربية أدخل معظم ليبيا تحت إمرة مصر، مع أنه كان لا يزال حديث السن جداً.

ولما اعتلى العرش بعد موت أبيه وقد ملأته فتوحاته السابقة زهواً، اعتزم أن يغزو كل المعمورة، وهناك من يقول إن ابنته أثيرتيس Athyrts دفعتّه إلى مد سلطانه على العالم أجمع. ويرى البعض أنها أفلحت، لما أمتازت به من شدة الذكاء، فى إقناع أبيها بأن الحملة

ستكون سهلة ميسرة، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت تتعاطى الكهانة وأنها اطلعت على ما يضره الغيب عن طريق العرافة، والنوم في المعابد، وما يبدو في السماء من شارات. وكتب البعض أنه عند ميلاد سيسوسيس رأى أبوه هيفيستوس في منامه وأنبأه بأن الطفل المولود سيحكم العالم أجمع.

وهذا إذن هو السبب فيما يقولون في أن أباه جمع كل أترابه، وكفل لهم تنشئة ملكية متخذاً الأهبة من قبل لغزو العالم، ولما بلغ سيسوسيس مبلغ الرجال آمن بنبوءة الإله، وحُمل على القيام بهذه الحملة.

٤٤ وتحقيقاً لهذا الغرض كان مسعاه الأول كسب عطف المصريين، معتقداً أنه لكي يصيب نجاحاً في خطته يجب أن يكون المشتركون في الحملة مستعدين للقاء الموت في سبيل قاداتهم وأن يكون المخلفون في وطنهم بعيدين كل البعد عن الثورة. ولذلك فقد أضحى الخير على رعاياه أجمعين بكل ما استطاع من سُبُل، فاكتسب البعض بالهبات المالية، والبعض الآخر بإقطاعات الأرض، والبعض بالغاء العقوبات، وامتلك قلوبهم بحسن معاملته ودمائه أخلاقه، فعفا عن كل من اتهم بالخيانة العظمى، وأعفى المسجونين بسبب الدين من التزاماتهم، وقد كانت السجون غاصة بهم. وقسم البلاد كلها إلى ستة وثلاثين إقليمًا يسميها المصريون مقاطعات، ونصب على كل إقليم والياً ليكون مسئولاً عن جباية الضرائب الملكية، وعن إدارة إقليمه، وانتقى من بين رعيته أولئك الذين يمتازون بالقوة البدنية وكون منهم جيشاً كفاً لمشروعه العظيم، والواقع من الأمر أنه جند ٦٠٠,٠٠٠ راجل و ٢٤,٠٠٠ فارس. وجَهَّز ٢٧,٠٠٠ مركبة

حربية ووضع فرق هذا الجيش تحت قيادة أترابه، وكانوا قد أكتووا فعلا بنار الحرب، شديدي الولع منذ طفولتهم بالبطولة، يكونون الحب الأخوي لمليكيهم ولبعضهم البعض، وكان عددهم يربو على ١٧٠٠ شخص، وأقطعهم جميعاً أבוד الأرض حتى يستطيعوا - وقد رُتب لهم دخل كاف، وانتفت عنهم الحاجة - أن يتفرغوا لممارسة فنون الحرب. **٥٥** وبعد أن جهز جيشه سار أولاً ضد الأحباش الذين يسكنون جنوب مصر، وهزمهم واضطروهم إلى دفع جزية من الأبنوس والذهب والعاج، ثم أنفذ حملة مؤلفة من أربعمئة سفينة إلى البحر الأحمر^(١). فهو أول من ابتنى سفناً حربية من المصريين، واستولى على الجزائر الواقعة في تلك الجهات. أما في القارة نفسها فقد أخضع الشاطئ إلى الهند. أما هو فقد اشتق طريقه راجلاً على رأس جيشه وقهر كل آسيا. فهو لم يذهب إلى البلاد التي غزاها فيما بعد الإسكندر المقدوني فحسب، بل أوغل أيضاً في بعض الأقطار التي لم تطأها أقدام الإسكندر، فقد عبر نهر الكنج واجتاز بلاد الهند كلها إلى المحيط، وأوغل في القبائل الإسكيثية حتى أتى نهر التنايس Tanasis^(٢) الذي يفصل بين آسيا وأوروبا. ويقال إن جماعة من المصريين تخلفوا في ذلك الحين بالقرب من بحر مايوتيس Maeotis^(٣) وكونوا قبيلة الكولخييين^(٤) ويسوقون الدليل

(١) يعني الخليج الفارسي

(٢) هو نهر الدون

(٣) هو بحر آزوف

(٤) حدود بلادهم البحر الأسود في الغرب وجبال القوازق في الشمال، ومقاطعة جورجيا في الشرق وطرابيزون في الجنوب. ويرجح البعض أن الحضارة المصرية أثرت في الكولخييين

على أن هذه القبيلة من أصل مصرى، بأن عادة الختان تمارس عندها كما تمارس في مصر فهذه العادة تسود بين الجاليات المصرية التي تنزح عن مصر كما هو الحال عند اليهود.

وأدخل تحت نيره كذلك الإقليم الباقي من آسيا وأكثر جزائر الأرخيبيل ثم عبر البحر إلى أوروبا وأوغل في تراقيا كلها وهناك كاد أن يفقد جيشه لنفاد المؤن ووعورة البلاد. ولذلك فقد جعل من تراقيا حدود حملته وأقام أعمدة في كثير من البقاع التي أخضعها، وكانت هذه الأعمدة تحمل النقش الآتي مكتوباً بالحروف المصرية يسمونها مقدسة «سيسوسيس ملك الملوك، ورب الأرباب أخضع هذه البلاد بقوة سلاحه» وصور على الأعمدة صورة سوءة رجل بين القبائل المحبة للحرب، وسوءة أنثى بين القبائل المترهة الرعيدة، فقد رأى أن هذا العضو المميز للجنس سيظهر بجلاء الأجيال المقبلة طبيعة نفس كل هذه الشعوب، وأقام لنفسه في بعض المناطق تمثالاً من الحجر يصوره متدرعاً يحمل قوساً وسهاماً ورمحاً طوله أربع أذرع وأربع راحات، وهو طول سيسوسيس نفسه في الحقيقة. وعامل الشعوب المقهورة بالحسنى. وبعد أن ختم حملته في تسع سنوات أمر الشعوب المقهورة أن تحمل لمصر الهدايا كل عام كل بحسب قدرته. أما هو فبعد أن جمع أعداداً غفيرة جداً من الأسرى وكمية بالغة من أسلاب الحرب الأخرى، قفل راجعاً إلى وطنه وقد أنجز أعمالاً أعظم مما قام به أى ملك قبله. هذا إلى أنه زين جميع المعابد في مصر بالنصب والأسلاب الرائعة، وكافأ الجنود الذين قاموا بأعمال مجيدة بالعطايا كل بحسب جدارته. وبالجملة، فلم

تكن نتيجة هذه الحملة أن جمع الجند الذين ساهموا بشجاعتهم في مشروع الملك ثروة طائلة، ورجعوا إلى أوطانهم منتصرين، فحسب، بل إن الخيرات من جميع الأنواع تدفقت على مصر بأسرها.

٢٥ وبعد، فقد سرح جيشه وأعفاه من مشاق الحرب، وسمح للذين ساهموا في تلك الأعمال المجيدة أن يعيشوا حياة هنيئة متمتعين بالثروة التي اكتسبوها. أما هو وقد كان تواقاً للذكر الخالد، فقد أقام آثاراً عظيمة تروعك فكرتها كما تروعك المبالغ التي أنفقت عليها، فحقق بذلك المجد الخالد لنفسه، ودوام الرفاهية والأمن للمصريين. ولما كان همه الأول تمجيد الآلهة فقد ابتنى في كل مدينة في مصر معبداً للإله الذي كان سكان المدينة يقدسونه قبل سواه. ولم يستخدم المصريين في هذه الأعمال، بل أنجزها أسرى الحرب وحدهم، ولذلك أثبت على كل معبد نقشاً يقول « إنه لم ينصب في هذا العمل أحد من المصريين » وكان الأسرى البابليون غير قادرين على احتمال مشاق هذه الأعمال، فثاروا - فيما يقال - على الملك، واستولوا على موقع حصين على ضفة النهر، وشنوا الحرب على المصريين، وعاثوا فساداً في الإقليم المجاور. وأخيراً، استقروا في تلك المنطقة بعد أن صدر عنهم عفو عام وأطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلي بابلون. ويقال إنه لأسباب مماثلة أطلق اسم طرويا على المدينة التي ما زالت إلى يومنا هذا قائمة على ضفة النيل، ذلك أنه عندما ارتحل مينيلوس^(١) Menelaus

(١) المأثور في القصة أن مينيلوس قضى ثمانى سنوات هائماً حول شواطئ البحر المتوسط قبل أن يصل هو وزوجته هيلينا إلى أسبرطة بعد حرب طروادة.

عن طروادة، وعبر البحر إلى مصر، وبصحبته جمع غفير من أسرى الحرب ثار عليه هؤلاء واستولوا على بعض المواقع وظلوا يشنون الحرب إلى أن تعهد لهم بالأمن والسلام، ثم أنشأوا مدينة أطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلي عينه. ولست بغافل عن أن كتيزيزياس الأكنيدي^(١) أورد رواية أخرى بأن هاتين المدينتين، إذ قال إن الذين ارتحلوا إلى مصر مع سميراميس Semiramis^(٢) أنشأوهما وأطلقوا عليهما أسماء أوطانهم الأولى. ولكن حيث إنه من العسير أن نسوق الحقيقة بشأن هذه المسائل بدقة، فقد كان من الضروري أن نورد مختلف آراء المؤرخين السابقين حتى يتمكن القراء من إصابة محجة الصواب.

٥٧ ومهما يكن من شيء فقد أقام سيسوسيس قلاعاً عظيمة نقل إليها جميع المدن التي لم يكن موقعها الطبيعي مرتفعاً، حتى يهيئ للناس والأنعام ملجأ أميناً في وقت الفيضان. واحتفر في كل الأرض فيما بين منف والبحر قنوات عديدة متفرعة على النهر حتى يتم نقل المحصول بسرعة ويسر، وحتى يتسنى للأقاليم كلها - باتصال الناس بعضهم ببعض - أن تنعم بحياة هادئة ويفيض من أسباب النعمة. وأهم ما في هذا الأمر أنه حسن البلد وجعلها بمنأى عن غزوات الأعداء فقد كان أغلب القطر المصري قبل هذا العهد مطية سهلة للخيل والعجلات، ولكن منذ ذلك الحين أصبح من الصعب على العدو أن يغزو لكثرة عدد

(١) عاش في أواخر القرن الخامس ق.م. وكتب تاريخ آشور وفارس

(٢) سميراميس وزوجها نينوس هما - كما جاء في الأساطير - اللذان أنشأ إمبراطورية نينوس أو نينوى.

القنوات المتفرعة على النهر. وحصن الجبهة المصرية الشرقية على طول الصحراء من الفرما إلى هليوبوليس، وهي مسافة ١٥٠٠ ستاد، ضد الغزوات المندفعة إليها من سوريا وبلاد العرب. وابتنى أيضاً سفينة من خشب الأرز طولها ثمانون ومائتا ذراع وجهها الخارجي مذهب، والداخلي مطلي بالفضة، وقد أرصدت هذه السفينة ومسلتان من الحجر الصلد نقش عليها ما ينبئ عن عظمة قوته. ووفرة دخله وعدد الشعوب التي أخضعها للإله المقدس في طيبة. وأقام في منف في معبد الإله هيفايستوس تمثالين كل منهما من حجر واحد لنفسه ولزوجه طول كل منهما ثلاثون ذراعاً^(١)، وتمثيل أخرى لأبنائه طول كل منهما عشرون ذراعاً. وقد كانت إقامتها كلها للسبب الآتي:

بعد أن قفل سيسوسيس راجعاً إلى مصر من حملته العظيمة، وكان يقضى وقته بالقرب من الفرما، حدث أن دبر له أخوه مؤامرة بينما كان يحتفى به وبزوجه وأولاده. ذلك أنه بعد أن سكنوا إلى مخادعهم وقد لعبت الخمر برءوسهم وضع أخوه كميات كبيرة من الغاب الجاف - وكان قد جهزها من قبل - حول خيمة الملك، وأشعل فيها النار، فلما اندلعت النيران فجأه سعى الموكلون بخدمة الملك كسالى لتجذته، فقد كانوا سكارى. ولكن سيسوسيس رفع كلتا يديه إلى السماء وصلى للآلهة لتنتقذ زوجه وأولاده، وانطلق بين أسننة النيران سالماً. فلما نجا بهذه الطريقة العجيبة قرب النذر تمجيداً للآلهة جميعاً كما ذكرنا آنفاً وبخاصة هيفايستوس لأنه كان سبباً في نجاته.

(١) يوجد بالقرب من منف تمثالان عظيمان لرسيس الثاني، طول أكبرهما اثنان وأربعون قدماً أو يوازي الثلاثين ذراعاً التي يذكرها ديودور وهيرودوت ١١٠،٢

٥٥

وعلى كثرة ما ينسب إلى سيسوسيس من عظيم الأعمال، فإن أجلها قدرًا فيما يبدو لنا تصرفه مع أولى الأمر في الشعوب المقهورة في روحاته وغدواته. فإن الملوك الذين أتيح لهم أن يبقوا على عروشهم في الدول المغلوبة والفئة التي بلغت فيها أرفع المناصب كانوا يمثلون إلى مصر في أوقات معينة حاملين إليه الهدايا. وكان سيسوسيس يرحب بهم ويفيض عليهم كل صنوف التكريم، ويودعهم باحترام زائد. ولكنه حينما كان يزعم زيارة معبد أو مدينة، كان يطلق الخيل من مركبته ويضع تحت النير بدلًا منها أربعة ملوك بالتناوب، معتقدًا أنه يظهر للعالم بذلك أنه لم يعد من ينازعه قصب السبق في البطولة، وقد قهر أقوى الملوك وأبعدهم شهرة في الشجاعة. ويبدو أن هذا الملك فاق جميع من سبقوه من الحكماء في المجد الحربي، وعظمة وكثرة ما أقام في مصر للآلهة من معابد، وما ابتنى من منشآت. وبعد أن حكم ثلاثًا وثلاثين سنة ترك الحياة مختارًا بعد أن زایلته نعمة البصر. ولم يكسبه هذا العمل إعجاب الكهنة فحسب. بل أكسبه إعجاب المصريين كلهم بوجه عام. فقد رأوا أنه اختتم حياته ختامًا يليق بما تجلى في أعماله من سمو النفس، ولقد زادت شهرة سيسوسيس على مر السنين حتى إنه عندما وقعت مصر في قبضة فارس، وأراد دارا أبو أجزركسيس أن يقيم نفسه تمثالًا في منف أمام تمثال سيسوسيس، اعترض الكاهن الأعظم على هذا الاقتراح عندما عرضت المسألة على مجمع الكهنة، مشيرًا إلى أن دارا لم يقم بعد بما يفوق أعمال سيسوسيس، ولم يغضب الملك لذلك

مطلقاً، بل سر لهذه الصراحة في القول، وواعد بأنه سيعمل على ألا يكون لاحقاً لسيوسيس في أمر ما إذا قسم له أن يبلغ ما بلغه من العمر. وطلب إلى الكاهن الأعظم أن يزن أعمال كل منهما في نفس العمر مبيناً أن ذلك أعدل محك لعظمتها، ولتقنع الآن بما أسلفنا من قول
عن سيوسيس

٥٩ وورث ابنه ملك أبيه واتخذ اسمه، ولكنه لم يقم بعمل حربي أو غير حربي يستحق الذكر، وانتابته محنة عظيمة إذ فقد بصره، إما لمشابهة في تركيب الجسم بينه وبين أبيه أو كما يقول البعض لكفره بالنهر، فقد ألقى سهمه في قلب التيار المائي حينما طوحت به الأمواج العاصفة. وقد اضطرتته محنة العمى هذه إلى أن يلجأ إلى المعونة الإلهية محاولاً لمدة طويلة أن يسترضى الآلهة بالأضاحى والقربان المتعددة، ولكنه لم يلق رضا. وفي السنة العاشرة، أمره الوحي أن يمجّد إله هليوبوليس وأن يغسل وجهه ببول امرأة لم تتصل قط برجل غير زوجها. فاستعان أول الأمر بزوجه، ثم جرب نساء أخريات، لم يجد منهن واحدة طاهرة إلا زوج أحد البيلتانيين، فتزوج منها بعد أن استرد بصره، وحرق الأخريات أحياء في إحدى القرى، وقد أطلق عليه المصريون - إشارة إلى هذه الحادثة - اسم «الأرض المقدسة»^(١). وأقام الملك - انصياعاً لأمر الوحي وعرفاناً بصنيع إله هليوبوليس - مسلتين من حجر واحد سمك كل منهما ثمانى أذرع وطولها مائة ذراع^(٢).

(١) القصة واردة في هيرودوت ٢، ١١١ باختلاف يسير.

(٢) لا تزال إحدهما قائمة إلى الآن، وهى من حجر الجرانيت وارتفاعها ٦٦ قدماً

٦٥

وبعد ذلك الملك لم يقم الكثيرون ممن خلفوه على العرش بعمل واحد يستحق الذكر. وبعد أجيال عديدة تولى أمازيس Amasis الملك، فساس الرعية بالعنف، وعاقب الكثيرين ظلماً، وحرّم عدداً غيراً من ممتلكاتهم، وعامل رعاياه كلهم بازدراء وعتو. ولقد احتمل الشعب المتألم زماناً فلم يكن في مكنته أن يحمي نفسه ضد أصحاب السلطة الكبرى. ولكن لما غزا أكتيزانيس Actisanes^(١) ملك الحبشة مصر وجد غيظ المصريين منفرجاً، فثارت غالبيتهم ضد أمازيس، فهزم بسهولة ووقعت مصر تحت حكم الأحباش، ولم يطر هذا النجاح بلب أكتيزانيس، فعامل الشعب المقهور بالحسنى، وقام بعمل جليل بشأن اللصوص، فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البتة، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلى حدود الصحراء، وأنشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أي «مجدوعة الأنف» نسبة إلى سكانها. وهي تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر، محرومة من كل أسباب الحياة الإنسانية تقريباً، وهي محاطة بمنطقة مغطاة بطبقة سميكة من الملح، ولا يوجد داخل حدود المدينة إلا قدر قليل من الماء في الآبار غير نقي ومر المذاق. ولقد أبعد المجرمين إلى هذه المنطقة حتى لا يمارسوا من ناحية الأعمال التي درجوا على ممارستها طوال حياتهم، فينتهكون حرمة الأبرياء، وحتى يظلوا من

(١) يرى البعض أن أكتيزانيس هو الملك سبا أو سباكا ٧١٢-٧٠٠ ق.م وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

ناحية أخرى متديزين في صلاتهم بغيرهم من الناس. وبالرغم من أنهم كانوا منبوذين في صحراء عديمة الموارد تقريباً فقد اهتموا إلى طريقة لكسب قوتهم تناسب ما هم فيه من فقر. فقد اضطرتهم الطبيعة إلى طرق كل السبل الممكنة لمواجهة الإملاق. فقطعوا الغاب في المنطقة المجاورة واستطاعوا بشقه أن يصنعوا منه شباكاً طويلة جداً، نصبوها على الشاطئ على مسافة أميال عديدة لاصطياد السمان الذي يطير في أسراب كبيرة من ناحية البحر، فاصطادوه بكميات كبيرة أقامت أودهم.

وبموت هذا الملك استعاد المصريون السلطة، ونصبوا مندیس Mendius^(١) ملكاً عليهم، وهو مصرى الأصل، ويسميه البعض ماروس Marrus. ولم يقم هذا الملك بعمل حربي على الإطلاق، ولكنه شيد البناء الذي يعرف باسم اللابرنث « قصر التيه » قبراً له، وهو لا يدعو إلى العجب لضخامته بل لدقة صناعته التي لا تحاكي، فإن من يلججه لا يستطيع أن يجد طريقه إلى الخارج بسهولة إلا إذا كان له دليل محنك جداً. ويحكى أن ديدالوس^(٢) Daedalus أبحر إلى مصر، وأعجب بما تجلى في هذا البناء من المهارة الفنية، فابتنى لمينوس Minos ملك أقریطش تيهاً يشبه التيه المصري، وأودع فيه الحيوان المسمى مينوطور Minotaurus ولكن التيه الأقریطشى لم يبق له وجود مطلقاً، ويعزى إلى هذا أن أحد الملوك قد قوّضه من أساسه، أو إلى

(١) يسميه إسترابون مرة إيمانديس ومرة إيسمانديس.

(٢) شخصية أسطورية تمثل عند اليونانيين بدء تطور فني النحت والعمارة. والاسم في اليونانية يعنى "المانع الحاذق"

أن الزمان عدا عليه. أما التيه المصرى فما زال إلى يومنا هذا محتفظاً
بكامل رونقه.

٦٧ وبعد موت هذا الملك ظلت البلاد بلا حاكم خمسة أجيال،
تولى الملك بعده رجل نكرة سماه المصريون كيتيس^(١) Cetes ويعرف عند
اليونان باسم بروتيوس Proteus كان معاصراً للحروب الطروادية. وكانت
قد تواترت الأنباء بأنه كان متفقهاً فى علم الأرواح، فقد كان فى قدرته أن
ينسخ نفسه حيواناً مرة وأخرى شجرة أو ناراً أو أى شىء آخر. وتتفق مع
هذه الرواية رواية الكهنة القائلة بأن الملك اكتسب معرفته بهذه الأمور
من اتصاله الوثيق الدائم بعلماء الهيئة. هذا فى حين أن قصة نسخ شكله
هذه نشأت عند اليونان من تقليد متوارث لدى المصريين، فقد كان من
عادة ملوك مصر أن يضعوا على رؤوسهم رأس أسد أو ثوراً أو ثعباناً بمثابة
رمز لسلطانهم. وقد يضعون أحياناً على رؤوسهم شجرة أو ناراً وأحياناً
يضعون شيئاً من البخور الذكى. وهم لا يتخذونها للزينة فحسب، بل
ليلقوا كذلك الرعب والرهبه فى قلوب الناس. وبعد موت بروتيوس خلفه
ابنه ريمفيس Rhemphis^(٢) على العرش، فقد قضى حياته كلها مولياً
همه لتنمية دخله وجمع المال من جميع مختلف المصادر ولم ينفق -
لخسة نفسه وجشع طبعه - شيئاً على قرابين الآلهه أو فى البر بالإنسان.
ولما كان مديراً حاذقاً لشئون المال أكثر منه ملكاً، فبدلاً من أن يخلف

(١) لا يعرف عن كيتيس هذا شىء. أما بروتيوس فيظهر أنه تحريف لقب مصرى، وهو فى
الأساطير اليونانية ملك أرجوس.

(٢) ريمفيس هو رمسيس الثالث ويسميه هيرودوت رامسينيتوس ٣، ١٢١

ذكرى بطولة. خلف مبالغ من المال أكبر مما خلفه أى ملك قبله. فقد أثر عنه أنه جمع حوالى ٤٠٠,٠٠٠ طالنت من الفضة والذهب.

وبعد موته خلفه على العرش مدى سبعة أجيال ملوك خاملون **٦٣** صرفوا همهم إلى المتعة والترف ولذلك لم تحفظ لنا سجلات الكهنة إشارة واحدة إلى أثر من آثارهم، أو عمل ما من أعمالهم يستحق الذكر، اللهم إلا فيما يتعلق بالملك نيلوس Nileus الذى سُمى النهر باسمه، وكان النهر يدعى من قبل إيجيبتوس Aegyptus. فقد احتقر هذا عدداً كبيراً من القنوات فى مواضع صالحة، واثبت بمجهودات مختلفة حرصه على أن يزيد من فائدة النهر، ومن هنا أطلق على النهر اسمه الحالى.

وثامن هؤلاء الملوك خميس Chemmis^(١) من منف وقد حكم خمسين عاماً وابتنى أكبر الأهرام الثلاثة التى تعد من عجائب الدنيا السبع. وهى تقع فى الجانب المتاخم لليبيا على بعد ١٢٠ ستادا من منف وه ٤ ستادا من النهر، وهى تملأ نفس الرائي عجباً ودهشة لضخامتها ودقة صناعتها. وأكبرها مربع القاعدة طول كل ضلع من أضلاعها سبعة بلثرونات وارتفاعه أكثر من ستة بلثرونات، وتندرج مساحته فى الصغر حتى تصل إلى القمة التى طول كل ضلع فيها ست أذرع. والبناء كله مشيد من حجر صلد يصعب صقله ولكنه يبقى إلى الأبد. فما زالت الأحجار ثابتة فى مواضعها الأصلية حافظة لكيان البناء

(١) هو خوفو ويسمى هيرودوت كيويس ١٢٤،٣، ولقد وقع ديودور فى نفس الخطأ الذى وقع فيه هيرودوت فجعل بناء الأهرام الذى تم فى الأسرة الرابعة بعد رمسيس الثالث وهو من فراغة الأسرة العشرين.

كله من التهدم، مع أنه قد انقضى على بنائه ما لا يقل عن ألف عام كما يقول البعض، أو أكثر من أربعمائة وثلاثة آلاف عام كما يقول البعض الآخر. ويقال إن الأحجار نقلت من مسافة كبيرة من بلاد العرب^(١)، وأن عملية البناء قد أجريت بوساطة تلال من الرمل لأن الروافع لم تكن قد اكتشفت بعد في تلك الأيام. وأغرب ما في الأمر أنه بالرغم من أن عملية البناء قد أجريت في منطقة رملية كلها، فليس هناك من أثر للتلال، أو لعملية صقل الأحجار حتى ليبدو كأن البناء لم تقمه تدريجياً يد الإنسان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به. ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائب، فيقولون إن التلال صنعت من الملح والنظرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها ومحتها نهائياً دون أن يكون للإنسان ضلع في الأمر. والواقع أن هذه الرواية عارية عن الصحة تماماً، فإن العدد العظيم من العمال الذين أقاموا التلال، أرجعوا بأنفسهم إلى ما كانت عليه من قبل فإن ستين وثلثمائة ألف رجل كانوا يعملون فيما يقال في هذا البناء، وقد أنجزوه بشق الأنفس في عشرين عاماً.

٦٤ ولما مات هذا الملك خلفه على العرش أخوه كفرن^(٢) Kephren وحكم ستاً وخمسين سنة، ويذهب البعض إلى أن الذي تولى الملك بعد خوفو ليس أخاه بل ابنه خابرياس Chabryas، والإجماع

- (١) بلاد العرب تعنى كل المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ولكن الأرجح أن أحجار الأهرام اقتطعت من المنطقة المحيطة بها.
 (٢) هو خفرع كما ورد في النقوش. ويسميه هيرودوت ٢، ١٢٧ كفرن كذلك.

على أن خليفة خوفو انتهج سياسته وابتنى الهرم الثانى وهو يشبه الأول من حيث المهارة الفنية ولكنه يقل عنه حجماً إذ إن طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ستاد واحد، ويدور أحد نقوش الهرم الأكبر حول المبالغ التى أنفقت فى بنائه وهو يظهرنا على أن أكثر من ستمائة وألف طالنت أنفقت على الخضراوات والطهو اللازم للعمال. أما الهرم الثانى فخال من النقوش وبه درج محفور فى أحد جوانبه، وبالرغم من أن هذين الملكين قد ابتنيا الهرمين ليدفنا فيهما، فلم يحدث أن دفن أحدهما فى هرمه، ذلك بأن المشاق التى تحملها القوم فى بنائهما، وقسوة الملكين وعنفهما، ألبيت الشعب ضدّهما فألى أن يمزق جثتيهما إرباً، وأن يلقى فى غيطه خارج القبور، ولذلك أوصى كل منهما أهله بدفنه عند موته سرّاً فى مكان مجهول.

تولى الملك بعد ذلك ميكيرينوس Mycerinus الذى يسميه البعض منقرع Mwncherinus وهو ابن باني الهرم الأكبر، ولقد شرع فى بناء هرم ثالث ولكنه مات قبل أن يتمه، وجعل طول كل ضلع من أضلاعه قاعدته ثلاثمائة قدم وابتنى خمس عشرة طبقة من الواجهة الخارجية من الحجر الداكن^(١) اللون الشبيه بأحجار طيبة. أما باقى الهرم فقد ابتناه من أحجار كالتى استعملت فى بناء الهرمين الآخريين. وهو يفوقهما جدّاً فى دقة صناعته وقيمة أحجاره، ولو أنه يقل حجماً عنهما كثيراً. ويحدثنا النقش المكتوب على الجانب الشمالى منه أن بانيه منقرع. ولم يرض عن قسوة أسلافه واجتهد فى أن يحيا حياة فاضلة يصرّفها فى

(١) الطبقات السفلى من الهرم الثالث من حجر الجرانيت الأحمر

خير شعبه، ودأب على القيام بالأعمال التي اعتقد أنها تكسبه عطف شعبه. ويقولون إنه أنفق مبالغ طائلة من المال على تنظيم القضاء، بإذلا هبات كبيرة للرجال الفضلاء الذين رأى أنهم لم يلقوا جزاء عادلا على يد القضاء.

وهناك ثلاث أهرام أخر طول كل ضلع من أضلاعها مائة قدم. وهي تشبه الثلاث السابقة في شكلها وليس في حجمها. ويقال إن الملوك الثلاثة السابقين ابتنوها لأزواجهم. ولقد اتفقت الآراء على أن الأهرام لم تحظ في مصر بذلك المركز الممتاز لضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب، بل لدقة صناعة بناتها أيضاً. ومهندسو المشروع أولى بالإعجاب- فيما يقال - من الملوك الذين دبروا المال لإنجازه، لأن المهندسين استنفدوا في إنجاز المشروع أرواحهم وهممهم، بينما استغل الملوك الأموال التي ورثوها ومجهودات الآخرين. ولقد تضاربت الآراء بشأن الأهرام بين سكان البلاد كما تضاربت بين المؤرخين. فيعزو البعض بناءها إلى الملوك الذين ذكرتهم بينما يعزوه غيرهم إلى ملوك آخرين. فيقولون مثلاً إن الهرم الأكبر ابتناه أرميوس Armaeus والثاني أموزيس Amosis والثالث إيناروس Inaros ويذهب البعض إلى أن الهرم الأخير كان قبراً للمحظية رودوبيس^(١) Rhobopis. فقد تواترت الرواية أن بعض حكام الأقاليم كانوا يهونونها وأنهم اشتركوا في إقامة هذا البناء مدفوعين بغرامهم بها.

(١) رودوبيس معناها حمراء الوجنتين وهي كنية غانية من غوانى نوقراطيس خلبت لب خاراكوس أخى الشاعرة سافو، فنددت بها.

٦٥ ارتقى العرش بعد هؤلاء الملك بوخوريس^(١) Bocchoris وكان زرى الهيئة جداً، ولكنه فات جميع من سبقه من الملوك فى حكمته. وبعد زمن طويل ارتقى عرش مصر سباكون Sabacon وهو حبشى الأصل ولو أنه بز أسلافه كثيراً فى التقوى والفضل. وقد نستشهد على طيبة قلبه بأنه ألغى أشد عقوبات القانون ونعنى بها عقوبة الموت، فبدلاً من أن ينفذ حكم الموت فى المدانين، اضطرهم إلى أن يقوموا بأعمال عامة فى المدن مكبلين. وكذلك أقام جسوراً عديدة واحترف قنوات كثيرة مفيدة، فقد رأى أن يخفف من قسوة العقوبة على من حكم عليهم بها. وأن يضمن للمدن أعمالاً مفيدة بدلاً من العقوبة عديمة الفائدة. ويمكن أن نستدل على مبلغ تقواه من الرؤى التى عرضت له، ومن قصة تنازله عن العرش، فقد رأى فى منامه كأن إله طيبة ينبأه بأنه لن يتاح له أن يستوى على عرش مصر فى هناة أو لأمد طويل إلا إذا شطر أجسام جميع الكهنة شطرين، ومر مع حاشيته فى وسطها. ولما تكرر هذا الحلم استدعى الكهنة من جميع الأقاليم وقال لهم إن بقاءه فى البلاد قد أحفظ الإله وإلا ما أمره فى الحلم بشىء كهذا، ثم قال إنه يفضل أن ينزح عن البلاد دون أن يلوث نفسه ويؤثر أن يلقي بحياته فى يد القدر على أن يثير حفيظة ربه، ويلوث نفسه بهذه الجريمة الشنعاء لقاء استمراره فى حكم مصر. وأخيراً سلم مقاليد الحكم لأهل البلاد وقفل راجعاً إلى الحبشة^(٢).

(١) هو بوكترانف حكم مصر من ٧٣٦ - ٧١٢ تقريباً، وهو ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين.

(٢) قصة تنازل آخر ملوك الأحباش عن حكم مصر، واردة فى النقوش القديمة ولكن الواقع أن تنازله كان تراجعاً أمام زحف الآشوريين.

وظل العرش شاغراً طيلة السنتين التاليتين، ولما مال العامة إلى الفتن والحروب الأهلية تحالف أقوى اثني عشر زعيماً، واجتمعوا في منفٍ وعقدوا معاهدة ليرعوا الميثاق والوثام فيما بينهم ونصبوا أنفسهم ملوكاً. وحكموا البلاد وفقاً لعهودهم ومواثيقهم، وحافظوا على صلوات الود فيما بينهم مدة خمسة عشر عاماً. ثم شرعوا في بناء قبر مشترك لهم، فقد رأوا أنه كما رعوا الود فيما بينهم على قيد الحياة واكتسبوا مجداً متكافئاً يجب أن تترقد أجسادهم بعد الموت كذلك في صعيد واحد، وأن يقوم الضريح بعد إتمامه شاهداً جامعاً على مجد الذين يرقدون فيه. ولقد دفعتهم شدة حرصهم على بلوغ هذه الغاية إلى بذل أقصى الجهد ليفوق هذا البناء في ضخامته كل ما سبقه من الآثار، واختاروا له موقعاً في الصحراء الليبية^(١) عند مدخل بحيرة موريث وشيدوا قبرهم بأحسن أنواع الحجارة. وقد اختطوه مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ستاد واحد، وزينوه بالزخارف وسائر الأعمال الفنية حتى لم يدعوا لخلفهم^(٢) مجالاً لمنافستهم، نجد فيه بعد أن نعبر السور الخارجي بهواً تحيط به العمدة، أربعون منها في كل جانب، وسقفه منحوت من حجر واحد، مزخرف بتجاويف هندسية، ورسومات مختلفة، وباليهو كذلك تذكارات لمسقط رأس ملك من الملوك، وإن ما فيه من معابد وطقوس، كلها مصورة ببراعة في رسوم رائعة. ولقد كان تصميم

(١) أي في الجانب الغربي من النيل.

(٢) هذا هو التيه المذكور في الفصل ٦١ وقد ابتناه منمنحت الثالث من الأسرة الثانية عشرة.

البناء الذي وصفه هؤلاء الملوك باهظ النفقات وكبير الحجم - فيما يقال - إلى حد أنه لو لم يتركوا العرش قبل تمامه لقطعوا على غيرهم طريق منافستهم في تشييد الآثار، ولكن حدث أنه بعد أن حكم هؤلاء الملوك مصر مدى خمسة عشر عاماً انتقلت السلطة إلى يد رجل واحد، للأسباب التالية: زود أبسماتيك Psammetichus^(١) السياسي - وهو أحد الملوك الاثني عشر، وصاحب السلطان في المناطق المتاخمة للبحر - جميع التجار بالبضائع، وخصوصاً الفينيقيين واليونانيين منهم. فتخلص بهذه الطريقة من منتوجات بلاده بريح، واستورد عوضاً عنها منتوجات البلاد الأخرى، فلم يربح ثروة طائلة فحسب، بل كسب كذلك صداقة الشعوب وحكامها. فحسده الملوك الآخرون - فيما يقال - من أجل ذلك، وشنوا عليه الحرب، ولكن بعض المؤرخين المتقدمين يروون قصة فحواها أن الوحي أنبأ هؤلاء القادة بأن أول من يسكب منهم قربان الخمر للإله في منف في إناء برونزي سيصبح سيد مصر كلها، ولما ذهب أحد الكهنة ليحضر لهم من المعبد اثني عشر إناء ذهبياً نزع أبسماتيك خوذته وسكب منها القربان. وبالرغم من أن سلوكه هذا قد أثار شكوك زملائه في الحكم إلا إنهم لم يشاءوا أن يقتلوه وألزموه النفي وأن يقضى بقية حياته في المستنقعات المتاخمة للبحر. وسواء قام النزاع من جراء ذلك أم غيرة وحسداً كما ذكرناه آنفاً، فالواقع من الأمر أن أبسماتيك استدعى الجنود المرتزقة من قارية Caria وأيونية Ionia وانتصر على خصومه في المعركة التي دارت رحاها بالقرب من

(١) حكم أبسماتيك من سنة ٦٦٣ إلى سنة ٦٠٩ ق.م.

المدينة التي تدعى مومفيس Momemphis وقتل بعض الملوك الذين تصدوا له ، وطارد البعض الآخر إلى ليبيا. ولم يصبح لهم بعد من الطول ما ينازعون به السلطان.

٦٧ وبعد أن وطد أسماتيك سلطانه في المملكة بأسرها، ابنتى البهو الخارجى فى الجهة الشرقية من معبد منف، وسور المحراب، واستخدم عوضاً عن الأعمدة تماثيل ضخمة طول الواحد منها اثنا عشر ذراعاً. وفضلاً عن المرتبات التى وعد المرتزقة بها، فقد أجزل لهم العطاء وأفرد المنطقة التى تسمى «المعسكر»^(١) لسكانهم، وأقطعهم مساحات واسعة من الأرض إلى الجنوب قليلا من فرع النيل البيلوزى، ولما تولى أمازيس الملك بعد ذلك التاريخ بسنين عديدة نقلهم من ذلك الموضع وأسكنهم منف. ولما كان السلطان قد استقام لأبسماتيك بوساطة هؤلاء المرتزقة فقد آثرهم على غيرهم بالقيام على شؤون الحكم، واستمر على انتهاج سياسة استخدام قوات كبيرة من الجنود المرتزقة. وحدث أنه عندما قام بحملة إلى سوريا، أكبر من شأن المرتزقة، بأن عهد إليهم بالطعام، وجعل موضعهم فى الجناح الأيمن، أما القوات المصرية فقد صغر شأنها وجعل مكانها الجناح الأيسر من القيلق. فأحفظت هذه الإهانة المصريين وكان عددهم يربو على المائتى ألف، فشقوا عصا الطاعة، وزحفوا على بلاد الحبشة عاقدين العزم على أن يفتحوا لأنفسهم بلاداً لهم وحدهم، فأوفد الملك أولاً بعض قواده ليعتذروا لهم عما لحق بهم من إهانة، فلم يأبهوا برسله، فاتبعهم بنفسه فى جمهرة

(١) اكتشف فلنדרز بترى أحد هذه المعسكرات فى تل دفنة غرب القنطرة.

من أصدقائه في زوارق. وبينما كانوا مصعدين في النيل، على وشك عبور الحدود المصرية، توسل إليهم أن يثنوا عزمهم، مذكراً إياهم بمعابدهم ومسقط رؤوسهم، وأزواجهم وأطفالهم، فرفعوا عقيرتهم جميعاً صائحين، ضاربين دروعهم بحرابهم، وقالوا ما دام سلاحهم طوع أمرهم فسيجدون وطناً بسهولة، ثم رفعوا أريدتهم وأشاروا إلى سوءاتهم قائلين ما دامت هذه لنا فلن نعدم الزوجات والأبناء. وبهذه الروح العالية، مزدرين ما يضعه الآخرون في المكان الأرفع من الأهمية، استولوا على الجزء الأكبر من بلاد الحبشة، واحتصوا أنفسهم بجزء كبير توطنوا به. ولقد غضب أبسماتيك لهذا المسلك أشد الغضب، ولكنه نظم الأمور في مصر، وبذل عنايته في تنمية الدخل الملكي وعقد محالفة مع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى، وأحسن إلى الأجانب الذين نزحوا إلى مصر للإقامة فيها بمحض رغبتهم، ولما كان شديد الإعجاب بالثقافة اليونانية فقد نشأ أبناءه تنشئة يونانية. وبالجملة، فقد كان أول ملك فتح كل^(١) أسواق مصر للشعوب الأجنبية. وضمن للأجانب النازحين إلى مصر عبر البحار غاية الأمن. وقد حرم أسلافه من الملوك دخول مصر على الأجانب بأن قتلوا بعض النازحين إليها واستعبدوا البعض الآخر. ولقد كان عدم ترحيب المصريين بالأجانب سبباً في أن صار ضلال بوسيريس مضغة أفواه اليونانيين فلم يراعوا جانب الحق فيما

(١) يرى بعض النقاد أن النص يجب أن يتبع هنا فنقول «باقي» أسواق مصر، أي إن أبسماتيك فتح أولاً الأسواق التي كانت تحت سيطرته ثم لما صار حاكماً فتح للأجانب باقي أسواق البلاد.

وصفوا من ضلاله، بل بولغ فيه إلى حد الخرافة لاستفحال الفوضى في هذه لبلاد.

٢٨ وبعد أربعة أجيال من حكم أبسماتيك تولى أبريس^(١) Apries الملك مدة اثنين وعشرين عاماً. وزحف على قبرص وفينيقية بقوات برية وبحرية كبيرة، فأخذ صيدا عنوة، وألقى الرعب في المدن الفينيقية الأخرى فوقعت في يده. وبعد أن هزم القبرصيين والفينيقيين في موقعة بحرية كبيرة غنم أسلاباً كثيرة ورجع إلى مصر، ثم أنفذ حملة كبيرة من بنى وطنه إلى طرابلس وبرقة. ولقد فقد الجزء الأكبر منها وشق الذين نجوا عصا الطاعة له وثاروا عليه لاعتقادهم أنه دبر هذه الحملة بغية القضاء عليهم حتى يكون أكثر اطمئناناً في حكم سائر المصريين. فبعث إليهم الملك بأمازيس^(٢) أحد أعيان المصريين رسولا، ولكن هذا لم يعبأ بما أوصى به الملك من عقد صلح مع الثوار، بل على العكس شجعهم على التمادى في العصيان، واشترك في الثورة، فانتخب هو نفسه ملكا، وبعد زمن غير طويل، انضم سائر المصريين إلى الثوار، فاضطر الملك إبريس، وقد تملكته الحيرة، إلى أن يركن إلى المرتزقة وكان عددهم ثلاثين ألف رجل تقريبا. ووقعت المعركة بينهم بالقرب من قرية مارية وكان النصر فيها حليف المصريين، وأسر الملك أبريس وقتل شنقا، أما أمازيس فقد نظم شئون الملك على الوجه الذي رآه مرضيا. وحكم المصريين وفقا للقوانين، فنال تأييدا عظيما، وغزا مدن قبرص،

(١) يرجع الكثيرون أنه فرعون خفرع المذكور في التوراة في إرميا ٣٧، ٥، ٤٤، ٣٠.

(٢) أحبس الثاني مؤسس الأسرة السادسة والعشرين حكم مصر من ٥٦٩ - ٥٢٦.

وزين كثيراً من المعابد بنصب جديرة بالذكر. ولقى حتفه بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة حين زحف قمبيز ملك فارس على مصر في السنة الثالثة من الالمبياد الثالث والستين الذي فاز فيه في سباق الأستاديون^(١) بارمينيديس Parmenides من أهل قمارينة Camarina.

٦٩ الآن، وقد ألممنا إلمامة مرضية بأعمال ملوك مصر منذ أقدم العصور إلى موت أمازيس فسنعرج إلى البقية الباقية، وسنسردها في سياقها التاريخي. وسنتحدث الآن عن عادات المصريين باختصار مقتصرين منها على أشدها غرابة وأعظمها فائدة للقارئ. فكثير من العادات التي نشأت في مصر، لم تنل تأييد أهل البلاد فحسب، بل حظت بإعجاب اليونانيين الشديد، ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهني شديدي الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التي رأوها جديرة بالدرس. فبالرغم من الصعوبة التي كان الأجانب يلاقونها في زيارة البلاد في العصور المتقدمة لما أسلفنا ذكره من الأسباب، فقد حرص على زيارتها من القدماء أوروبفوس والشاعر هوميروس ومن المحدثين فيثاغوراس Pythagoras من أهل سامس Samos والمشرع سولون Solon وكثير غيرهم. ويدعى المصريون أنهم أول من عرف الحروف الهجائية، ورصد النجوم. هذا إلى أنهم اكتشفوا النظريات الهندسية، وأغلب الفنون، وسنوا أقوم الشرائع. ويقولون إن أقطع دليل على صحة ذلك أن مصر يحكمها منذ أكثر من سبعمائة وأربعة آلاف عام ملوك جلهم من أبناء البلاد، وأنها كانت أكثر بلاد المعمورة خصوصية،

(١) مباراة في السباق جرياً لمسافة ٦٠٦,٧٥ قدما وتعقد في أولمبيا.

فلو لم يلتزم سكان البلاد أحسن التقاليد والقوانين ولم ينتجها أصح سبل التربية والتعليم لما كان الأمر كذلك فيما يزعمون. وسنضرب صفحاً عما لفق هيرودوت^(١) وبعض المؤرخين الآخرين عن مصر، فهم عوضاً عن التزام الحقيقة، وآثروا عامدين الإغراب وابتكار الأقايص لتسليّة القارئ. وسنسرّد هنا ما احتفظ به الكهنة المصريون في سجلاتهم من روايات وقد محصناها بدقة.

٧٥ فملوك المصريين لا يعيشون أولاً على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى، فيعملون ما يشاءون تبعاً لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم، لا في حياتهم العامة فحسب، بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك. فلم يكن للملك بين خدمه عبد واحد مشترى أو مؤد، بل كانوا جميعاً من أبناء أشهر الكهنة، وقد جاؤا العشرين عمراً، وتلقوا أعلى ثقافة في البلاد. وهكذا لا يتاح للملك وقد حُف به أنبل الرجال للعناية ببدنه، وملازمته طوال النهار والليل، أن يأتي أعمالاً وضيعة. فما تمادى سلطان في الغواية إلا كان له من وليجته من يقوم على إرضاء شهواته. وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل في الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه. فقد كان عليه أولاً عندما يوقظ في الصباح المبكر، أن يتسلم الكتب التي أرسلت إليه من جميع الجهات، حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه، ويكون على علم تام بكل ما يحدث

(١) قرظ ديودور هيرودوت في الفصل السابع والثلاثين.

فى جميع أنحاء المملكة، وعليه بعد ذلك أن يستحم، وأن يلبس بزة فاخرة، ويزين بالأنواط الملكية، ثم يقرب القرابين للآلهة. وجرت العادة بأن يقف رئيس الكهنة، عندما تحضر العتائر إلى المذبح إلى جانب الملك، ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهور غفير من المصريين فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم مادام منتهجاً سبل العدل إزاء رعيته. وكان من واجب رئيس الكهنة أن يعلن صراحة فضائل الملك واحدة فواحدة فيقول إنه يتقى الآلهة، شديد الرحمة بالناس، حلِيم، عادل، كبير النفس، منزّه عن الخداع، يبذل ماله بسخاء، وبالجملة، فهو قابض على زمام شهواته، يجزى المسيء بأقل مما يستحق من عقوبة، ويثيب المحسن بأوفى مما أسلف من إحسان، وبعد أن يعد كثيراً مما شاكل هذه الفضائل، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التي صدرت عن جهل، منزهاً الملك عن اللوم، ومستمطراً اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه بآراء خبيثة. ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملك إلى التقوى ومخافة الله، وليرشده إلى حياة ترضاه الآلهة، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعي بصراحة إلى الفضيلة. وبعد ذلك حينما يفرغ الملك من فحص أحشاء الضحية، ويطمئن إلى الفأل الحسن. يقرأ الكاتب بصوت مرتفع من الكتب المقدسة طرفاً من الحكم المفيدة، وأعمال مشاهير الرجال، حتى يتسنى لصاحب السلطان على البلاد بأسرها أن يتملى في قلبه أحسن أصول الحكم فيهدى إلى الخطة القويمة فى تدبير شئون الأقاليم. ولم يحدد

له القانون وقت تصريف شئون الحكم، أو عقد المحاكمات فحسب، بل حدد له كذلك وقت نزهته، واستحمامه، واجتماعه بزوجته، وبالجملة، فقد خصص له وقتاً معيناً لكل شأن من شئون الحياة.

وكان من عادة الملوك أن يتعاطوا اللحم الرخيص فيأكلوا لحم العجول والإوز فقط، ويشربوا قدرًا معيناً من النبيذ، لا يكفي لامتلائهم فوق الحد أو سكرهم.

وبالجملة فأسلوب حياتهم كان منظماً تنظيماً معتدلاً إلى حد أنه يبدو أن واضعه لم يكن مشرعاً بل أحسن الأطباء وضعه، وصحة الملك هدفه الوحيد.

وإذا بدا عجيباً أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة في اختيار طعامه اليومي، فأشدَّ عجباً من ذلك بكثير أنه لم يكن في قدرته أن يقضى في المخاصمات أو يصرف ما يعن له من الأمور، أو يقضى بعقوبة على أحد من الناس مدفوعاً بكيد له أو غيظ منه، أو بأى دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة.

وبالرغم من التزامهم السنن التقليدية دائماً، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أن يغضبوا أو يحملوا ضغينة في قلوبهم لأحد. بل على العكس رأوا أنهم يحيون أسعد حياة. فقد كانوا يعتقدون أنه عندما يطلق غيرهم من الناس بدون روية العنان لنزعاتهم الطبيعية، يأتون من الأعمال ما ينطوي على الخسائر أو المخاطر، وأنه يحدث كثيراً أن يرتكب بعض

الناس - مع علمهم بأنهم على وشك التردى فى الخطيئة - أعمالاً
 وضيفة لوقوعهم تحت سيطرة الحب أو الكره أو غيرهما من العواطف
 الأخرى، بينما الملوك - بانتهاجهم أسلوباً من الحياة يحبذه أحكم
 الناس - يلتزمون جادة العدل إزاء رعيّتهم فقد استشعر القوم نحوهم من
 الولاء ما يزيد عما يكونه لأهلهم من حب فلا يولى الكهنة ولا سكان
 مصر كافة نساءهم وأولادهم وسائر مقتنياتهم الثمينة من الاهتمام ما
 يولونه لسلامة الملوك، ولذلك احتفظوا رداً طويلاً من الزمان بالنظام
 السياسى الذى وضعه الملوك الذين أتينا على ذكرهم، وظلوا يتمتعون
 بحياة سعيدة جداً فى ظل هذه المجموعة من القوانين، هذا إلى أنهم
 قهروا شعوباً كثيرة، وجمعوا ثروات طائلة وزبنوا بلادهم بمبان ومنشآت
 لا تضارع، وجملوا مدنهم بشتى أنواع النصب الباهظة النفقات..

❧ وتنهض الحفلات التى تقام فى مصر بعد موت الملك دليلاً
 قاطعاً على ولاء الشعب لحكامه. فإن مايبعثه العرفان من تكريم يصفونه
 على ملك لا يشعر به، ينطوى على برهان حقيقى على إخلاصهم.
 وعندما يفارق أحد ملوكهم هذه الحياة الدنيا يعم الحزن المصريين جميعاً
 فيميزقون ملابسهم، ويغلقون معابدهم ويمتنعون عن تقديم الأضاحى
 للآلهة، ولا يحيون الأعياد اثنين وسبعين يوماً، ويخرج الرجال والنساء
 جميعاً، وقد لطحوا رؤوسهم بالطين، واثتذروا فيما يلى الصدر بلباس من
 التيل الرفيع - فى جماعات مؤلفة من مائتين أو ثلاثمائة - فينشدون
 مرتين فى اليوم المراثى ملتزمين الضرب ويرتلون المدائح للمتوفى،
 ذاكرين فضائله، ويصومون عن أكل اللحم والدسم ويمتنعون عن تعاطى

النبيذ وسائر أنواع الترف، ولا يرضى أحد منهم أن يستحم أو يتطيب أو ينام على فراش وثير، أو يجرؤ على إتيان النساء، بل يحزنون حزناً عظيماً ويحدون طوال الفترة المذكورة، كأن الواحد منهم قد فقد ابنه العزيز، فيكونون في هذه الأثناء قد جهزوا ما يلزم لإقامة الشعائر الجنائزية تجهيزاً رائعاً، وفي آخر أيام الحداد يضعون النعش الذي يضم الرفات أمام مدخل القبر، ويشكلون - طبقاً للطقوس - محكمة لتتظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا. وقد أباحوا لمن شاء أن يتهمه، أما الكهنة فتأبئه؛ معددة مناقبه، وألوف الناس التي اجتمعت لتشييعه تنصت إليها وتشترك في تأبينه. هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياةً مجيدة، أما إذا كانت حياته على العكس وضيفة، تصايحت الجماهير. وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمي الذي تخوله لهم الشرع نتيجة لاعتراض الشعب. ولذلك كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل لا لما أسلفنا من أسباب فحسب بل خوفاً من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك. هذه إذن أهم التقاليد التي تتصل بالملوك القدامى.

٣٣ ومصر بأجمعها مقسمة إلى مديريات متعددة تسمى الواحدة في اليونانية مقاطعة، يعين لها مدير له حق الإشراف والمراقبة التامة فيها. وتنقسم البلاد فوق ذلك إلى ثلاثة أقسام كان أولها في حوزة الكهنة^(١) الذين كانوا يتمتعون باحترام عظيم بين الشعب، لتفرغهم لأمر الدين.

(١) جاء ذكر نظام الطبقات في مصر في هيرودوت ٢، ١٦٤ - ١٦٨، واسترابون ١٧، ١، وأفلاطون، «تيمائوس» ص ٢٤، وأيسقراط، «بوسيريس» ١٥، ١٦، وكلهم مجمعون على أن الطبقة الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند.

ولما يبذونه لتفقههم من فرط الذكاء. وهم ينفقون من دخلهم هذا على جميع الأضاحى التى تقرب فى مصر، ويكفون مؤنة معاونيهم، ويدبرون حاجياتهم الخاصة، وذلك للاعتقاد السائد بأن عبادة الآلهة يجب ألا ينالها التحريف، ويتحتم أن تقوم بها دائما طبقة بعينها بأسلوب بعينه، وينبغى للذين يعنون بشئون الدين نيابة عن الجميع ألا تعوزهم ضرورات الحياة. وعلى العموم فقد كان الكهنة يتشاورون فى أمهات المسائل، ويلازمون الملك، تارة كمعاونيه، وتارة كوزرائه ومعلميه، وهم ينبئون الملك بالمستقبل بوساطة التنجيم والعيافة، ويقراءون له من سفر الأعمال فى الكتب المقدسة ما عساه أن يكون مفيداً، وليس الحال هنا كما هو عند اليونان، إذا يمثل رجل واحد أو امرأة واحدة هيئة الكهنوت، بل يقف الكثيرون منهم حياتهم على العبادة وتقريب الأضاحى للآلهة، ويورثون أعقابهم نفس مهنتهم فى الحياة. والكهنة معفون من جميع الضرائب، وهم يأتون بعد الملك فى الشهرة والسلطان. وكان القسم الثانى من نصيب الملك، يستقى منه دخله الذى يمول منه الحرب، وينفق منه على بلاطه الرائع، ويثيب الأبطال بمنح تناسب جدارتهم، ولما كانت موارده هذه تفىء عليه دخلاً كبيراً، لم يرهق الناس بالضرائب. أما القسم الثالث فقد وقف على الفئة التى يسمونها المحاربين وهى التى تقوم بالخدمة العسكرية.

والحكمة فى ذلك أنه ينبغى أن يكون المحاربون الذين يجازفون بأرواحهم أشد الناس تعلقاً بأوطانهم، فيتحمسون لفضل هذه المنح العقارية فى مواجهة ما تنطوى عليه الحرب من أخطار، لأنه من

السخف أن تكل سلامة الشعب بأسره إلى فئة ليس لها في البلاد التي ستحارب من أجلها نصيب كفيلاً بإثارة نخوتها. هذا ولكن أكثر الاعتبارات أهمية أن المحاربين إذا كانوا في بحبوحة من الرزق أقبلوا على إنجاب الأبناء، فيزيدون بذلك من تعداد الشعب إلى حد يجعل البلاد في غنى عن استخدام الجنود المرتزقة. ولما كان المحاربون يرثون حرفتهم عن آبائهم، فإن بطول آباءهم تحفزهم إلى المجد، ولما كانوا شديدي الاهتمام منذ طفولتهم بالأعمال الحربية، فإنهم يشبون أبطالاً لا تقهر في ميدان الجراءة والحنكة.

٧٤ وهناك ثلاث طبقات أخرى في الدولة، وهي الرعاة والفلاحون والعمال. فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر زهيد، وهم يقضون كل حياتهم في فلاحه الأرض، ويفوقون بكثير فلاحى سائر الشعوب مهارة. لأنهم يتدربون على الأعمال الزراعية منذ نعومة أظفارهم. وهم أيضاً أدق منهم جميعاً علماً بطبيعة الأرض وطرق ريها، ومواقيت البذر والجنى وسائر عمليات جمع المحصول. وهذه المعلومات استقوا بعضها من ملاحظات أجدادهم. والبعض الآخر من تجاربهم الشخصية. وينطبق هذا الوصف كذلك على طبقة الرعاة، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعى الماشية كما لو كان ذلك طبقاً لقانون النواريث. فيقضون حياتهم طولها في الرعى وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات كثيرة عن أحسن طرق رعى الماشية وتربيتها، ووقعوا هم أنفسهم على معلومات غير قليلة لشدة شغفهم بفنهم. ومما يدعو إلى الدهشة حقاً، أن مربى الدجاج والإوز

يحصلون ، لما امتازوا به من مهارة فنية لفرط ولعهم بصناعتهم ، على مقادير لا تحصى من الدواجن ، فضلا عن الدواجن التي تنتج بطريق التفريخ الطبيعي الذي يكتفى به سائر الناس . ذلك بأنهم لا يستخدمون الدواجن فى تفريخ البيض ، بل يقومون هم أنفسهم بذلك بطريقة صناعية عجيبة ، فيحاكون بما هم عليه من فطنة ومهارة قوى الطبيعة ومهارتها . ويلاحظ كذلك أن الناس فى مصر يبذلون الجهد فى الصناعة حتى تتقدم وترتقى إلى غايتها المرموقة . فمصر هى البلد الوحيد الذى لا يسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر ، أو التدخل فى شئون السياسة ، بل يلتزمون ماورثوا عن آباؤهم من حرف طبقاً لنصوص القانون ، حتى لا تقف منافسة المعلم أو مشاغل السياسة أو أى شىء آخر حجر عثرة فى طريق انكبابهم على صناعتهم . هذا فى حين أننا نجد الصناع فى الشعوب الأخرى موزعى الهمة بكثير من المشاغل فيدفعهم الجشع إلى عدم الاستمساك بحرفتهم ، فيتعلق البعض منهم بالزراعة ويساهم البعض الآخر فى التجارة ، ويمارس البعض الآخر حرفتين أو ثلاثة ، وفى البلاد الديمقراطية^(١) يهرع الصناع فى جماعات كبيرة إلى المجالس التشريعية فيقوضون دعائم النظام السياسى ، ويكتسبون المال من أيدي باذلى الرشاوى ، أما فى مصر فيستهدف الصانع الذى يتدخل فى السياسة أو يمتهن أكثر من حرفة واحدة لأشد العقوبات . هذا إذن تقسيم الأمة إلى طبقات كما وضعه سكان مصر القدامى ، وذلك مبلغ استمساك كل فرد منهم بطبقته الخاصة التى ورثها عن أسلافه .

(١) يظهر أن ديودور يعنى أننا على التخصيص .

٧٥

وأولوا القضاء اهتماماً عظيماً معتقدين أن لأحكام المحاكم تأثيراً كبيراً في الحياة العامة، وذلك بسبيلين، فقد كان من الجلى أن الوسيلة المثلى لردع الجرائم هي معاقبة الجناة والانتصار للمظلومين. لأنه إذا فقدت المحاكم هيبتها لدى الخارجين على القانون، بعامل الرشوة أو مراعاة الخواطر، تفتت الفوضى في الحياة العامة. وتوصلوا إلى غرضهم هذا بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين. فقد كانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة، وهذه الهيئة لا يمكن أن تعتبر أقل شأنًا من مجلس الأريوباجوس في أثينا أو مجلس الشيوخ عن الإسبرطيين. ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًا للقضاة، ثم ترسل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه. وكان الملك يصرف للقضاة مرتبات تسد حاجتهم، وتكفي لإقامة أودهم، أما رئيس القضاة فكان يصيبه أضعاف هذا القدر. وكان من عادة كبير القضاة أن يحمل قلادة ذهبية يتدلى منها تمثال صغير من الأحجار الكريمة يسمونه «الحق». وكان القضاة يأخذون في النظر في القضايا حينما يتقلد كبيرهم صورة الحق. وكانت القوانين كلها مدونة في ثمانية كتب، توضع بجانب القضاة.

وجرت العادة بأن يكتب المدعى شكواه بالتفصيل مبيناً كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر، فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه، فيرد على كل نقطة فيها مدافعا بأنه لم يرتكب هذا الأمر، أو أنه ارتكبه ولكن لا إثم فيه، أو أنه أثم حقا ولكنه يستحق عقوبة مخففة. وبعد

ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستنداً إلى نصوص القانون، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى، وبعد أن يقدم كلا الخصمين العرائض التي كتبها إلى القضاء مرتين، يتعين على القضاة الثلاثين حينئذ أن يتفقوا فيما بينهم على الحكم، فيضع رئيس القضاة تمثال «الحق» على أحد جانبي الخصومة.

٧٦ هذه إذن هي الطريقة التي اتبعتها المصريون في جميع محاكماتهم، معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم ظلاً كثيفاً على الحق، ذلك أن براعة الخطباء، وسحر بيانهم، ودموع الذين يستهدفون للخطر من المتهمين، تدفع الكثيرين إلى التغاضي عن صرامة القانون، وقسوة الحق. ومهما يكن من شيء، فالملاحظ أنه كثيراً ما تخدع براعة المحامين رجالاً من أفاضل القضاة، إما بخدعة، أو بسحر البيان، أو بإثارة مشاعر الرحمة فيهم. ومن ناحية أخرى، فقد رأى المصريون أنه إذا قدم المتقاضون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة، إذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر. وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل، ولا للمحنك دون الغر، ولا للكاذب الجريء دون الصادق الحبي الطبع، بل يلقي الجميع العدل على قدم المساواة، لأن الوقت سينفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم، وللقضاة للموازنة بين حجج جانبي الخصومة.

٧٧ ونظن الآن، وبعد أن تحدثنا عن تشريعهم، أنه ليس من غير المناسب في بحثنا هذا أن تأتي على ذكر بعض القوانين المصرية

التي امتازات بقدمها السحيق، أو اتخذت وضعاً شاذاً، أو يمكن أن تكون ذات فائدة لمحبي الاطلاع. فأولاً: كان الموت عقوبة البين الكاذبة، على اعتبار أنها تنطوى على جريمتين كبيرتين، الكفر بالله وخرق أعظم ضمان للثقة بين الناس. وثانياً، إذا رأى أحد أثناء تجواله فى البلاد رجلاً يُقتل أو يعانى على أى وجه أذى ما، دون أن ينقذه، وكان قادراً على ذلك، استحق عقوبة الموت، أما إذا لم يكن حقاً قادراً على مدِّ يد المساعدة، تحتم عليه دائماً أن يبلغ عن اللصوص ويقتفى أثر الجريمة. ومن تهاون فى ذلك، وقد نص عليه القانون، يجلد عدداً معيناً من الجلدات، ويحرم الأكل بتاتاً ثلاثة أيام متوالية. ويلاقى أصحاب البلاغ الكاذب نفس العقوبة التي يستحقها المبلغ ضدهم لو أنه ثبتت إدانتهم. هذا إلى أنه على المصريين عموماً أن يقدموا لموظفى الحكومة كشفاً عن مصدر كسب كل منهم لمعاشه، والموت بالضرورة عقوبة كل من يزور فى هذا الكشف، أو يكون مورد رزقه حراماً. ولقد نقل صولون فيما يقال هذا القانون إلى أثينا حينما زار مصر. ونصت القوانين على أن الموت عقوبة كل من يقتل عمداً رجلاً حراً كان أم عبداً. وذلك لغرضين: أولهما ردع الناس كلهم عن الإثم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فى الحياة، بل تبعاً لنياتهم فى أعمالهم، وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع بتاتاً عن الاعتداء على الأحرار. ولم تسن عقوبة الموت للآباء الذين يقتلون أبناءهم، بل فرض عليهم أن يظلوا ثلاثة أيام وثلاث ليال سويّاً حاملين جثة القتيل باستمرار، تحت إشراف حراس

رسميين. فلم يرَ المصريون أنه من العدل أن يحرّموا الحياة أولئك الذين منوا بها على أولادهم، بل رأوا العدل في أن يصرفونهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة. أما الأبناء الذيت يقتلون آباءهم، فقد سنوا لهم عقوبة غريبة. فإن من تثبت إدانتهم بهذه التهمة تقتضب من أجسامهم بقصب مسنون قطع بحجم الإصبع، ويشؤون أحياءً على فراش من قتاد. فقد رأوا أن أشنع جرائم الإنسان أن يقضى بالقوة على حياة الذين منحوه الحياة. والنساء اللائى يقضى فيهن بالموت لا ينفذ فيهن الحكم إذا كنّ حبالى قبل أن يضعن، وقد نقل كثير من دول اليونان هذا القانون. فقد رأوا أنه من الظلم المحض أن يشارك الجنين البرئ أمه المذنبية فى جريرة ذنبها، أو أن يقتص من اثنين لوزر واحد، أو أن يتعرض الجنين لنفس عقوبة أمه مع أنه لا يعى شيئاً البتة، فى حين كان ارتكاب الجريمة مع سبق الإصرار، وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المفهوم أن يقضى بالموت على الجنين وهو ملك مشاع بين الأب والأم، فى أن الوزر منسوب إلى المرأة الحبلى وحدها. ومن الجائز أن تعتبر القضاة الذين يبقون على حياة المجرم الذى أدين بجريمة القتل، والقضاة الذين يقضون على حياة من لا ذنب لهم البتة، سواء فى الجور. هذه إذن بعض القوانين المتعلقة بجريمة القتل وقد اشتهرت فوق كل شىء بإصابتها البالغة.

ولا ينص قانونهم العسكرى على عقوبة الموت جزاء لمن يفر من الجندية أو يعصى أوامر قواده، بل عقوبته فقدان الاعتبار، فإذا ما

مَحَا أحدهم عاره بأعمال البطولة، رد له اعتباره كما كان. وهكذا جعل المشرع عقوبة فقدان الاعتبار أشد من عقوبة الموت حتى يعود الناس على النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، رأى المشرع أن الذين يقضى فيهم الموت لا يفيدون الحياة العامة بشيء، بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونون مصدر خير كثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم. أما الذين يفشون الأسرار للأعداء فقد قضى القانون بانتزاع ألسنتهم. والذين يزيغون النقود، أو يطففون الموازين والمكاييل، أو يزورون الأختام، وكذلك الكتبة العموميون الذين يزورون في متون السجلات. أو يمحون شيئاً من نصوصها، أو يبرزون عقوداً مغشوشة، فقد قضى القانون بقطع كلا أيديهم جميعاً. وهكذا يحمل المجرم الذي ينزل العقاب بالعضو الذي استخدمه من ارتكاب جرمه جرماً لا يندمل إلى يوم مماته. فيكون عظة للآخرين بما لقي من جزاء، ويصرفهم عن اقتراح أمثال هذه الجرائم. وكانت القوانين عندهم فيما يتعلق بالنساء صارمة كذلك. فقد كان الخصاص عقوبة كل من يغتصب المرأة الحرة، فقد رأوا أن المغتصب بارتكابه جريمة واحدة يقترب ثلاثاً مع أشنع الآثام: انتهاك الحرمه، والزنا، وخلط أنساب الموالي. أما إذا زنى أحد بامرأة برضاها فقد قضى القانون بأن يجلد الرجل ألف جلدة، وأن يجدهم أنف المرأة، فقد اعتقدوا أن المرأة التي تزين للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال.

٧٩ وتُنسب قوانين المعاملات لبوخوريس، وهي تقضى من ناحية، بأن من اقترض مالا دون إيصال وأنكر الدين، يعفى من

سداده إذا حلف اليمين على ذلك. والغرض الأول من هذا النص أن يستشعر الناس مخافة الله بتعليقهم أهلية عظمى على اليمين، ذلك بأنه لما كان من الجلّى أن الذى يحلف أيماناً كثيرة يفقد آخر الأمر ثقة الناس فيه، فإن الجميع سيعلقون أهمية عظمى على اجتناب اللجوء إلى الحلف، حتى لا يفقدوا ثقة الناس فيهم. والغرض الثانى للمشرع من جعل الثقة بأكملها قائمة على الشرف هو تشجيع الكافة على أن يكونوا فضلاء فلا يُعرف عنهم أنهم غير أهل للثقة. هذا إلى أن المشرع رأى أنه من الظلم ألا يوثق بالذين كانوا محل ثقة دون أن يحلفوا اليمين إذا حلفوها فيما يتعلق بالدعوى نفسها. أما الذين يقرضون أموالاً بإيصالات فقد قضى القانون بألا يزيد رأس المال عن طريق الفائدة إلى أكثر من الضعف.

أما عن المدين، فقد قضى المشرع بأن يكون استيفاء الدين من ممتلكات المدين وحدها، ولم يجرز قط أن يكون شخص المدين فى أى ظرف من الظروف رهينة لدينه^(١) فقد رأى أنه ينبغى أن تكون الأرض ملكاً للذين يعملون عليها أو الذين أخذوها هدية من أصحابها. أما الناس أنفسهم فيجب أن يكونوا ملكاً للدولة حتى تستأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والسلام جميعاً. فقد رأى أنه من السخف أن يلقى الدائن القبض على جندى وفاء لدينه وهو يواجه الأخطار دفاعاً عن

(١) كان القانون المصرى القديم ينص على استرقاق المدين إذا لم يف بدينه، ثم ألغى هذا القانون، ولكنه أصبح نافذاً فى القرن السادس ق. م. فى عهد أمازيس، وألغى بعد ذلك إلى أن أحياء البطالة من جديد

بلاده، فتعرض سلامة الجميع للخطر من جراء جشع بعض الأفراد. ويبدو أن صولون نقل هذا القانون كذلك إلى أثينا وسماه قانون «تخفيف الالتزامات»^(١) وأعفى بمقتضاه الآثينيين كافة من سداد الديون التي كان ضمانها شخص المدين. ويلوم البعض - بحق - أغلبية مشرعي اليونان الذين حرموا الاستيلاء على العُدَدِ والمحاريث وسائر الآلات الضرورية ضماناً للدين، مع أنهم أباحوا ارتهان الأنفس التي تستخدم هذه الآلات. وكان القانون الخاص باللصوص عند المصريين عجيباً كذلك.

فقد فرض على من يريد احترام هذه المهنة أن يقيد اسمه لدى رئيس اللصوص وأن يتعاقد على أن يبلغه بأمر المسروقات فوراً. وعلى ضحايا السرقة أن يبلغوا الأمر كذلك إليه مبيينين المسروقات بالتفصيل ذاكرين المكان واليوم والساعة التي ارتكبت فيها السرقة، وبهذه الطريقة يهتدون إلى كافة المسروقات بسهولة. وكان على ضحية السرقة أن يدفع ربع قيمة المسروقات لمجرد استرداد ما كان ملكاً له. ذلك بأنه لما كان من غير الممكن أن يمتنع الكافة عن السرقة فقد ابتكر المشرع طريقة يمكن بواسطتها استرداد جميع المسروقات مقابل فدية صغيرة، ويتخذ الكاهن في مصر زوجاً واحدة أما سائر الرجال فيتخذون من الأزواج ما يشتهون. والآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعاً^(٢) لزيادة تعداد السكان.

(١) أصدر صولون هذا القانون سنة ٥٩٤ ق. م. وأعتق بمقتضاه كل من كان استرقاقهم بسبب عدم وفاء دين.

(٢) يعني أن وأد الأطفال بتركهم في العراء، وقد كان داء فاشياً في بلاد اليونان، وكان محرماً في مصر.

فقد رأوا أن ذلك يزيد عمار البلاد والمدن. وهم لا يعتبرون أي ولد ابناً غير شرعي ولو كان ابن أمة مشتراة، وبالجملة فهم يعتبرون الأب وحده مسئولاً عن إنجاب الأطفال، أما الأم فتزود الجنين بالغذاء والجنة، ويدعون الشجر الذي يحمل الثمر ذكراً والذي لا يحمل ثمراً أنثى بعكس الاصطلاح اليوناني.

ويربى المصريون أبناءهم ببسر واقتصاد فوق الإدراك، فهم يقدمون لهم عصيدة مصنوعة من أي مادة رخيصة متوفرة، وسوق نبات البردي التي يمكن أن تشوى على النار، وجذور وسوق النباتات المائية، بعضها نيئ وبعضها مطبوخ والبعض الآخر مشوي. ولما كان معظم الأبناء يمضون شبابهم لحسن مناخ البلاد حفاة عراة، فإن جميع ما يتحملة الآباء من نفقات إلى أن يبلغ الابن أشده لا يزيد على عشرين دراهمة. وهذا أهم الأسباب الرئيسية التي أصبحت مصر من أجلها بلداً ممتازة بوفرة عدد سكانها، وإلى تلك الحقيقة الأخيرة يرجع السبب في أن مصر تضم عددًا كبيراً من الآثار العظيمة.

ويعلم الكهنة أبناءهم نوعين من رسم الحروف، الرسم الذي يدعى «الكتابة المقدسة» والرسم الذي يستعمل في العلوم الأكثر شيوعاً^(١)، وهم يبذلون جهدهم بنوع خاص في علم المساحة والحساب. وذلك لأن النهر يغير وجه الأرض كل عام بطرق مختلفة، ويثير المنازعات بين الجيران على الحدود، وليس من السهل حسم هذه

(١) كان للمصريين ثلاثة أنواع من الكتابة: الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديمقراطية، ولكن ديودور، وشأنه في ذلك شأن هيروdot، لم يستطع أن يفرق بين الرسمين الأولين.

المنازعات على وجه الدقة إلا إذا اهتدى المساح إلى الحقيقة بخبرته وفنه، أما الحساب فيفيدهم في تدبير شئونهم اليومية وفي تطبيق نظريات المساحة، والحساب إلى جانب ذلك ليس قليل النفع للذين ينصرفون إلى علم الهيئة، فاهتمام المصريين بأوضاع النجوم وحركاتها أكبر مما يوليها أي شعب آخر من الاهتمام. فهم يحتفظون بأزياج عن كل واحد منها منذ عدد لا نتصوره من السنين.

ولما كانوا شغوفين بهذه الدراسة منذ عهود سحيقة القدم، ورسدوا باهتمام عظيم حركات الأجرام ومداراتها ومواضعها وقدرة كل منها على خلق الكائنات الحية، وتأثيرها الحسن والسيئ، فيها، فكثيرا ما تكهنوا بما سيقع للناس من حوادث، وفي غير قليل من المناسبات تنبأوا بفساد المحصول أو على العكس بوفرته أو أن الطاعون سيتفشى في الناس والماشية جميعا، وأتاح لهم رصد النجوم لآماد طويلة علما سابقا بالزلازل والفيضانات وظهور المذنبات وجميع الظواهر التي رأى الناس أنها مما لا يتكهن به ويدعى المصريون أن الكلدانيين في بابل جالية مصرية، وأنهم مدينون بشهرتهم في علم الهيئة للعلم الذي أخذوه عن الكهنة المصريين.

أما سائر أهل مصر فيتعلمون من آبائهم أو أقربائهم الصناعات اللازمة لضرب من ضروب الحياة المختلفة، كما أسلفنا في ذلك القول^(١)، أما القراءة والكتابة فيتعلمون منها نذرا يسيرا، وهذا لا يجري على الجميع، بل يسرى على أولئك الذين يمارسون الصناعات بالتخصيص.

(١) راجع الفصل ٤٣، ٧٠، ٧٤

ولم يجر العرف بينهم بأن يتربوا على الرياضة البدنية^(١) والموسيقى، ذلك بأنهم يعتقدون أن الأحداث لا يكتسبون الصحة بتمريناتهم اليومية في منتديات الألعاب الرياضية، بل يصابون قوة عارضة قريبة الزوال، أما الموسيقى فقد كانت في رأيهم عديمة الفائدة، بل ضارة إذ إنها في الواقع تدخل التخنث على السامعين.

٨٢ وعالجوا أجسامهم توقيها للأمراض بالحقن والحمية والمقيئات يتناولونها أحيانا كل يوم، وأحيانا أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فهم يقولون إن الجزء الأكبر من مجموع الغذاء الذي نتناوله زائد عن الحاجة، وأنه يولد الأمراض، وإذن فالعلاج الذي ذكرنا يستأصل المرض ويضمن الصحة، وفي أثناء الحملات الحربية أو الرحلات إلى داخل البلاد، يعالج الجميع دون أن يُطالب أحد بأجر، ذلك أن الأطباء يتقاضون معاشهم من الحكومة، وهم يصفون العلاج طبقا لأصول مكتوبة، وضعتها طائفة من مشاهير الأطباء المتقدمين، وإذا أمعن الطبيب النظر في الأصول المثبتة في النصوص المقدسة واتبعها، ولم يستطع مع ذلك أن ينقذ المريض فلا جناح عليه، وهو براءة مما قد يتهم به؛ أما إذا انتهج نهجا يناقض الأصول فيقدم إلى المحاكمة وعقوبته إذا أدين الموت، فقد رأى المشرع أن قليلين من عساهم أن يكونوا أكثر علما من الأصول التي وضعها أئمة الصناعة وظلت مرعية منذ قرون عديدة.

٨٣ أما الحيوانات المقدسة في مصر، فهي ظاهرة تبدو بالطبع غريبة للكثيرين، وجدير بالبحث والتمحيص، فالمصريون يبالغون في

(١) أشار هيرودوت ٢، ٩١ إلى مباراة رياضية في أخميم

تقديس بعض الحيوانات، لا وهي في قيد الحياة فحسب.. بل بعد مماتها أيضا، وهذه الحيوانات هي القط، والنمس، والكلب، والصرق، والطائر الذي يسمونه الأبيس (أبو منجل)، يضاف إليها الذئب والتماسيح وكثير غيرها مما يشاكلها، وسأحاول أن أذكر أسباب هذه العبادة بعد أن أتحدث أولا باختصار عن هذه الحيوانات نفسها، يوقف أولا على كل نوع من الحيوانات المقدسة أرض تكفي غلتها للعناية بها وتغذيتها، فالمصريون يوفون النذور من أجل أبنائهم إذا نجوا من مرض فيحلقون رؤوسهم ويزنون الشعر بقضة أو ذهب ويهبون زنته للذين يقومون على خدمة الحيوانات المذكورة، والذين يرعون الصقور يقطعون لها اللحم شرائح، وينادونها بأعلى صوتهم، ويظنون يلقون الشرائح إليها وهي محلقة إلى أن تلتقطها، أما القطة والنموس فينبسون لها ويطرحون على الأرض الخبز الملوَّق باللبن، أو يقطعون لها السمك النيلي ويطعمونها إياه نيئا، وهكذا يقدمون الغذاء المناسب لكل نوع من الحيوانات الأخرى، ولا يتخلى المصريون مطلقا عن تأدية شعائر هذه الحيوانات، ولا يخجلون من أن يراهم الناس يؤديونها، بل على العكس، يتيهون بها كبرا كما لو كانوا يؤدون أقدس شعائر الآلهة. ويطوفون في المدن والقرى حاملين شارات خاصة، وعندما يرى المارة من بعيد لأي حيوان تقام الشعائر، يخرون له سجدا ويتعبدون، وعندما يموت أحد هذه الحيوانات المذكورة، يلفونه في سندس ويضربون صدورهم معولين، ويحملونه ليحنط، وبعد أن تعالج الجثة بزيت الأرز وبيع بعض المواد

الأخرى التي لها خاصة إكسابها رائحة ذكية، وحفظها وقتا طويلا، يضعونها في تابوت مقدس.

ومن يقتل عامدا أحد هذه الحيوانات يلاق الموت، أما من يقتل قطا أو أبا منجل فسواء قتلها عامدا أم غير عامد فالموت نصيبه على كل حال، إذ يهجم العامة على المذنب ويسومونه سوء العذاب دون محاكمة في بعض الأحيان، وإذن فكل من يرى واحدا من هذه الحيوانات ميتا، يبتعد إلى مكان قصي ويصيح ويولول مشهدا الناس، خوفا من مثل هذا المصير، على أنه عثر على الحيوان وقد نفق. ولقد امتزج الخشوع لهذه الحيوانات بقلوب العامة وظلت نفوسهم متشبثة بأمر عبادتها إلى حد أنه في الفترة التي سبقت منح الرومانيين ملكهم بطليموس لقب «صديق روما»، حدث أن قتل أحد الرومان قطة، فهجم العامة على بيت الجانسي، بالرغم من أن الجمهور كان يبذل قصارى جهده لاسترضاء البعثة الموفدة من إيطاليا، وكان لخوفه شديد الحرص على ألا يزودها بذريعة واحدة للشكوى أو إعلان الحرب عليهم، فلم يُجد الموظفون الذين أرسلهم الملك للتوسط، ولا ما كان يستشعره الجميع نحو روما من خوف، في نجاة الرجل من العقاب، هذا مع أنه ارتكب هذه الفعلة غير عامد، وهذه القصة التي رويناها لم تأتنا عن طريق السماع، فقد شاهدنا نحن هذه الواقعة أثناء زيارتنا لمصر.

وقد تبدو هذه القصة للكثيرين غير معقولة وقريبة من الخرافة، وستبدو القصة التي ستعقبها أكثر غرابة، إذ يحكى أن القحط

هصر المصريين مرة فصاروا في عوزهم يأكلون بعضهم بعضا، ولكن أحدا منهم لم يتهم - مجرد تهمة - بتناول أحد الحيوانات المقدسة، بل فضلا عن ذلك، فإن البيت الذي يُعثر فيه على كلب ميت، يحلق سكانه جميعا أجسامهم كلها ويحدّون، وأشد من هذا غرابة، أنه إذا اتفق أن كان مخزونا في الغرفة التي مات فيها واحد من هذه الحيوانات نبيذ أو خبز، أو شيء ما من ضرورات المعيشة، فإنهم لا يفكرون مطلقا في استعماله بعد ذلك في غرض ما. وإذا كانوا في حملة حربية في مكان ما من بلاد أجنبية، افتدوا القلط والصقور وأحضرها إلى مصر، وهذا دأبهم حتى لو كانت مؤنهم على وشك النفاد.

ومن السهل وصف ما يصنعون هنا للعجل أبيض في منف، والعجل منيفيس في هليوبوليس والجدى في منديس والتمساح في بحيرة موريس والأسد الذي يبقونه في المدينة التي تسمى لينوبوليس (مدينة الأسد) وكثير غيرها، ولكن من الصعب أن يصدق ما تقول من لم ير ذلك رأى العين.

فالمصريون يبقون هذه الحيوانات في حُجرات مقدسة، ويقوم على خدمتها كثير من الأعيان، ويقدمون لها أفخر الطعام، وهم يدأبون على تزويدها بالقمح المطحون أو المجروش المغلّى في اللبن، وكل أنواع الفطير الممزوج بالعسل، ولحم الإوز مطبوخا ومشويا، أما الحيوانات آكلة اللحوم، فيصيّدون لها طيورا كثيرة ويلقونها إليها، وبالجملة فهم يبذلون قصارى جهدهم في تقديم أفخر الطعام إليها،

ولا ينفكون يهيئون لها الحمامات الساخنة، ويعطرونها بأحسن الطيب، ويحرقون لها جميع أنواع البخور الذكي، ويوفرون لها أعلى السرر والحلى النفيسة، ويفرغون وسعهم لتمكينها من معاشرتها بعضها البعض وفق سنن الطبيعة، فيبقون مع كل واحدٍ من هذه الحيوانات أحلى الإناث من نوعه، ويسمونها السرايا، ويبدلون في خدمتها أبهظ التكاليف وأشق الخدمات، وإذا مات أحد هذه الحيوانات حزنوا عليه حُزن من ثكلوا أولادهم الأعماء.. ولا ينفقون على دفنه قدر طاقتهم بل يسرفون في ذلك منفقين أكثر مما ملكت أيديهم بكثير. فقد حدث- مثلاً- بعد موت الإسكندر، وبعد أن صارت مصر في حوزة بطليموس ابن لاجوس مباشرة، أن أسن العجل أبيس ونفق، فأنفق الموكلون به في دفنه كل الأموال الطائلة التي كانت قد تكدست لكفالته واقترض فوقها بطليموس خمسين تالنتاً من الفضة، وأدهى من ذلك أن بعض الموكلين بهذه الحيوانات أنفق على دفنها في أيامنا هذه ما لا يقل عن مائة تالنت.

٨٥ وينبغي الآن أن أضيف إلى ما تقدم وصف باقي الحفلات التي تقام للثور المقدس الذي يسمونه أبيس، فعندما ينفق هذا الثور ويودع قبره في حفل رائع، يبحث الكهنة القائمون على هذا الأمر عن عجل في جسمه سمات مشابهة لسمات سلفه الراحل، وعندما يقعون على بغيتهم، يرفع عن الشعب الحداد، ويقود الكهنة المختصون العجل إلى نيلوبوليس (مدينة النيل) Nilopolis أولاً حيث يعلقونه

أربعين يوماً، ثم يودعونه غرفة مذهبة من سفينة حكومية ويرفونه - كأنه إله - إلى معبد هيفايستوس في منف، وفي هذه الأيام الأربعين يسمح للنساء وحدهن برؤيته فيقفن في مواجهته ويرفعن أثوابهن، ويكشفن عن عوراتهن، أما في سائر الأيام فقد حظر عليهن التوجه إلى حضرة هذه الإله.

ويقول البعض إن السبب في تقديس الثور أن روح أوزيريس انتقلت بعد موته إلى الثور، ولذلك ما زالت إلى يومنا هذا تنتقل دائماً إلى سلامة هذا الثور أثناء تجلي أوزيريس، ويرجع آخرون السبب إلى أنه عندما مات أوزيريس على يد طيفون، جمعت إيزيس أجزاء جسمه في بقرة من الخشب، ملفوفة في قماش من التيل الرفيع، ومن هنا سميت المدينة عندهم بوسيريس^(١).

وهناك روايات كثيرة أخرى حول أبيس، ولكني أعقد أن الأمر يطول بنا لو سردناها كلها.

٥٤٦ إن طقوس المصريين في عبادة الحيوانات غريبة لا يمكن تصديقها، وهي مصدر حيرة كبيرة لمن يبحثون عن أسبابها وأصولها. ولكهنتهم في هذا الأمر عقيدة سرية، أسلفت ذكرها فيما أوردته عن معتقداتهم الدينية، أما سواد المصريين فلهم في عبادتهم أسباب ثلاثة: أما أولها فخرافي محض أليق بساذجة العصور المتقدمة، فيقولون إن الآلهة التي وجدت منذ البدء كانت قليلة العدد، فغلبها على أمرها بردة

(١) البقرة في اليونانية «بوس» ولكن بوسيريس معناها مدينة أوزيريس وهناك مواضع كثيرة بهذا الاسم

الأرض بكثرة عددهم وبغبيهم، فاتخذت الآلهة صور بعض الحيوانات، فنجت بهذا الأسلوب من توحشهم وبطشهم، ولما سيطر الآلهة بعد ذلك على كل ما فى العالم، قدسوا الحيوانات التى كانوا قد اتخذوا صورها، وعلموا الإنسان أن يراعاها ببذخ فى حياتها، ويودعها القبور بعد مماتها. عرفانا منهم بصنيع الحيوانات التى كانت فى البدء سببا فى سلامتهم، وثانى أسبابهم أن المصريين فى العصور القديمة هزمهم جيرانهم فى مواقع عديدة لانعدام النظام فى جيشهم، ففكروا أن يحملوا أعلاما على رأس كل فرقة، وجعلوا هذه الأعلام على صور الحيوانات التى تُعبَدُ الآن، وكان القادة يحملونها مثبتة فى أسنة رماحهم، فعرف كل فرد - بهذه الطريقة - إلى أى فرقة ينتمى. ولما كان ما نتج عن ذلك من حسن النظام قد ساعد كثيرا على انتصارهم، فقد ظنوا أن الحيوانات هى السبب فى إنقاذهم، وأرادوا أن يعرفوا لها هذا الصنيع، فسنوا سنة ألا يقتلوا واحدا من الحيوانات التى اتخذوا صورتها يومئذ، بل يعبدونها ويولونها ما وصفنا من رعاية وتعظيم.

والتالى ما يأتون به من أسباب تقديس الحيوانات، هو ما يؤديه كل نوع من خدمات فى سبيل المجتمع الإنسانى من ناحية الإنسان من ناحية أخرى، فالبقرة - مثلا - تلد الثيران التى تفلح الأرض وهى نفسها تحرث الأرض الرخوة، أما الأغنام فتلد مرتين فى السنة، وتهيئ لنا بأصوافها أسباب الوقاية والزينة، وتعد لنا بألبانها وجبناها

طعاما شهيا وفرا. أما الكلب فمفيد في الصيد وفي حراسة الإنسان، ولذلك يصور المصريون الإله الذي يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس، ويقول البعض إن الكلاب قادت إيزيس في بحثها عن جثة أوزيريس، وازدادت عنها الحيوانات المفترسة وعابري السبيل، وساهمت - برأ بها - في البحث عن جثة أوزيريس نابحة طوال الوقت، ومن هنا جرت العادة بأن يتقدم الكلاب الموكب في عيد إيزيس، فهذا شاهد يأتي به واضعو هذه السنة على المنة التي أسداها الحيوان في قديم الزمان، وللقطط استعداد خاص لإبادة الناشر القتال وغيره من الزواحف السامة، أما النمس فيترصد للتماسيح حتى تضع بيضها فيهشمه، وهو يقوم بهذا العمل بعناية واهتمام دون أن يكون له أية فائدة من ورائه، ولو لم يكن هذا دأبه لأصبح النهر غير صالح للملاحة لكثرة ما يفتس فيه من التماسيح. ويقتل النمس أيضا التماسيح نفسها بطريقة غريبة لا يمكن تصورها. فعندما يرقد التمساح على شط النهر فاغرا فاه، يتمرغ النمس في الوحل ويقفز من فم التمساح إلى جوفه، ثم ينهش أحشاه بسرعة وينفذ إلى الخارج سالما، تاركا التمساح جثة هامدة في الحال. أما في الطير فأبو منجل يفيد في إبادة الحيات والجراد واليرقات، والصقور، تفيد في إبادة العقارب والحيات المقرنات والحشرات الصغيرة السامة الشديدة الفتك بالإنسان.

ويقول البعض إن تقديس الصقور يرجع إلى أن العرّافين يستخدمونها في التنبؤ للمصريين بالغيّب، بينما يقول البعض الآخر إنه في العصور المتقدمة حمل الصقر للكهنّة في طيبة كتابا مربوطا بحيث يشتمل على طقوس خدمة الآلهة وعبادتها، ومن هنا كان الكهنّة المقدسون يضعون خيطا أحمر وريشة صقر فوق رؤسهم، ويقّس أهل طيبة النسر ويعتبرونه طيرا ملكيا جديرا بزيوس.

ويؤله المصريون الجدى كما يقّس اليونان بريابوس^(١) Priapus من أجل ذكره فيما يقال، لأن الجدى شديد الميل للجماع، ويلقى ذكره ما هو أهل له من تعظيم، ذلك بأنه السبب الرئيسي في إنجاب مملكة الحيوان، وبالجملة، فليس ذلك وقفًا على المصريين وحدهم، فشعوب غير قليلة أخرى تقدس الذكر في طقوسها، ذلك بأنه السبب في ظهور الكائنات الحية.

والكهنّة الذين يخلفون آباءهم على الوظائف الكهنوتية يدخلون بادئ ذي بدء في دين هذا الإله، ولهذا السبب عبد الناس - فيما يقال - بأن^(٢) pan والساتير^(٣) satyri، ولذلك تقام لها في المعابد غالبا تماثيل منتصبّة الذكر قريبة من هيئة الجدى، لأن المشهور عن هذا الحيوان أنه بالغ الشهوة للجماع، فالمصريون بتصويرهم هذه الآلهة على هذا النحو

(١) بريابوس: إله القوى الطبيعية المخصبة في الإنسان والحيوان والنبات، وكان اليونانيون يصورونه في هيئة جدى.

(٢) إله الماشية والرعاة عند اليونانيين ويمثلونه في هيئة رجل له قرنان ورجلا جدى

(٣) يختلف الساتير عن البان في أنه لا قرون له

يقدمون الشكر على كثرة نسلهم، وهم يعبدون الثيران المقدسة وأعنى هنا أبيس ومنيفيس، كآلهة كما أمر أوزيريس لسببين: فائدتها للزراعة، ولأن شهرة الوقوع على الحروث تنتقل بفضل مجهوداتها من السلف إلى الخلف على طول الزمان.

ولقد كانت التضحية بالثيران الضاربة إلى الحمرة جائزة لما يعتقدون من أن طيفون الذي تآمر ضد أوزيريس ولاقى جزاءه على يد إيزيس لقتله زوجها، كان لونه ضاربا إلى الحمرة، ويقال إن الملوك في العصر القديم كانوا يضحون على قبر أوزيريس بمن كان على لون طيفون من الرجال^(١) وقليل من المصريين من يضرب لونهم إلى الحمرة، أما أكثر الأجانب فعلى هذا اللون، ولذلك شاعت بين اليونانيين قصة قتل بوسيريس للأجانب. ولكن لفظ بوسيريس ليس علما على ملك.. بل هو لفظ يطلق على أوزيريس الذي كان يسمّى بوسيريس في لغة أهل البلاد. ويقال إن الذئب قدّست لشدة شبهها بالكلاب، فالذئب والكلب يختلفان اختلافا يسيرا في الطبائع ويلدان بالتزاوج فيما بينهما. وللمصريين في تقديس هذا الحيوان سبب آخر ولكنه خرافي، فهم يقولون إنه في العصر القديم، لما أزمعت إيزيس مع ابنها حورس أن تناهض طيفون، حدث أن انبعث أوزيريس من العالم السفلي في صورة ذئب ليساعد ابنه وزوجه، فلما قتل طيفون أشار هازموه يتقديس الحيوان الذي استتبع ظهور وجهه النصر، ويذهب البعض إلى أنه لما

(١) أنكر هيرودوت ٢، ٤٥ أمر تضحية المصريين بالرجال، ولعله لم يشاهدها أثناء إقامته، ولكن نحر الأسرى للآلهة مصور في آثار الأستين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

سار الأحباش بجيش إلى مصر تألفت رجال كبيرة من الذئاب وتعقبت الغزاة إلى خارج البلاد فيما يلي المدينة التي تسمى إلفنتين ولذلك سمى هذا الإقليم «إقليم الذئاب» وأولوا هذا الحيوان ما ذكرنا من تقديس.

بقي علينا أن نتحدث عن تقديس التماسيح، فقد حار أكثر الكتاب في أمر هذه العبادة. فهذه الضواري تفترس الإنسان، فكيف يسن القانون عبادتها وهي توقع هذه الأضرار الشنعاء؟.. ويرد المصريون على ذلك بأن النيل وحده لا يؤمن سلامة البلاد، بل يؤمنها أكثر من النيل ببعيد ما فيه من تماسيح. وهكذا لم يجرؤ قراصنة بلاد العرب وليبيا على عبور النيل خوفا من ضواريه الكثيرة، وما كان هذا ليحدث لو سُنت الحرب على التماسيح وأبيدت عن آخرها بما ينصبه الصيادون من شبك في النهر، وثمة رواية أخرى تحاك حول هذه الحيوانات، إذ يزعم البعض أن أحد الملوك القدماء المسمى مينا تعقبته كلابه الخاصة، فاحتمى منها في البحيرة التي تسمى مويريس وهناك انتشله تمساح بطريقة عجيبة، وحمله عبر البحيرة إلى الضفة المقابلة، وأراد الملك أن يعرف للحيوانات صنيعه في إنقاذه. فأنشأ مدينة في المنطقة المجاورة للبحيرة وسماها كروكوديلو بوليس (مدينة التماسيح) وأوصى أهل البلاد بتقديس هذه الحيوانات كآلهة، ووقف البحيرة على إطعامها وشيد هناك كذلك قبرا لنفسه على شكل هرم ذي أربعة أضلاع، وابتنى أيضا قصر التيه^(١) الذي نال إعجاب الجميع، ويقص المصريون روايات أخرى مثل هذه فيما يتعلق بسائر عباداتهم، ولكن الأمر سيطول بنا إذا سردناها واحدة فواحدة.

(١) ذكر في الفصل ٦١ أن باني قصر التيه هو منديس

أما أن المصلحة العامة كانت رائدهم فيما التزموا من عادات فأمر جلي للكافة من امتناع بعضهم من تعاطي كثير من المأكولات التي تنتج في إقليمهم، فقد كان بعضهم يمتنع بتاتا من تذوق العدس أو الفول أو الجبن أو البصل أو غيرها من أنواع المأكولات بالرغم من أنها كلها متوفرة في مصر، وبذلك يتضح لنا أن الناس يجب أن يتعلموا كيف يحرمون أنفسهم بعض المأكولات المفيدة، لأنه إذا تعاطى الجميع كافة أصناف المأكولات فلن يفي صنف واحد من المستهلكات بحاجتهم، ويدلى بعض الناس بأسباب غير التي ذكرنا فيزعمون أنه في عهد الملوك الأقدمين كثيرا ما ثار الشعب وتآمر بحكامه، فقسّم أحد الملوك - وكان فذ الذكاء - البلاد إلى أقاليم متعددة، وأوحى إلى سكان كل إقليم على حده أن يصيدوا حيوانا خاصا، أو يمتنعوا من تذوق مأكّل بعينه، حتى لا يستطيع المصريون أبدا أن يتحدوا معا، فقد كانت كل فئة منهم تعظم معبودها وتزدري ما يقده الآخرون، وتتبين أغراض هذا الملك من نتجائها، ذلك أن كل الذين يعيشون في أقاليم متجاورة على اختلاف شديد فيما بينهم، وقد أحفظهم التعدى على ما ذكرنا من عاداتهم.

٩٥ ويدلى البعض بسبب آخر لعبادة الحيوانات فيقولون إنه في البدء لما أقلع الناس عن حياة التوحش، وعاشوا في جماعات، كانوا يأكلون بعضهم بعضا، ويقتتلون وكانت الغلبة دائما للأقوى على الأضعف، ثم جمع الذين أعوزتهم القوة شملهم بدافع من مصلحتهم الخاصة، واتخذوا لهم شعارا هو أحد الحيوانات التي قدست فيما بعد، والتفت الفئة المستضعفة حول هذا الشعار، وكونت كتلة يتعذر

على المتطاولين امتهاتها ولما انتهج الآخرون أيضا هذه الخطة نفسها، انقسم الشعب إلى جماعات، وأصاب الحيوان الذي كان سبب سلامة كل جماعة من هذه الجماعات تقديسا إلهيا لما أسداه إليها من جزيل النعم. ولذلك تصيد كل جماعة من الجماعات المختلفة في مصر إلى يومنا هذا الحيوان الذي قدس عندها منذ البدء، وبالجملة فالقول بأن المصريين أكثر الناس قاطبة استعدادا للاضطلاع بزمام أي عارفة، وهم يعتقدون أن عرفان الصنيع لفاعليه ملاذ الحياة الأكبر، ذلك بأنه من الجلي أن الناس كلهم سيحرصون خاصة على بذل الصنيعة لأكثر من يرون من الناس حقاظا للمعروف.

ويبدو أن هذه هي الأسباب نفسها التي يخشع المصريون من أجلها لملوكهم ويتعبدون لهم كأنهم آلهة حقا، معتقدين أنه لولا العناية الآلهية ما أوتى الملوك السطان على كل شيء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأوا أن الذين يريدون الخير ويستطيعون تأديته لهم نصيب من الطبيعة الإلهية. وبعد فإذا كنت قد أفضت في الحديث عن الحيوانات المقدسة في مصر، فقد بحثت على أي حال بالتفصيل أعجب ما أثار دهشة الناس من الشعائر في مصر.

٩١١ وإن من يطلع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشد العجب لغرابة عاداتهم فيها، فعندما يموت أحدهم يلطخ جميع معارفه وأصدقائه رؤوسهم بالطين ويطوفون بالمدينة ناديين إلى أن توارى رفاته في القبر، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطى النبيذ أو أي غذاء لذيق، ولا يلبسون أي رداء زاهي اللون، وهناك ثلاث مراتب للدفن: الأولى

باهظة التكاليف، والثانية متوسطة، والثالثة متواضعة جدا. والمقول إن تكاليف المرتبة الأولى طالنت من الفضة وتكاليف الثانية عشرون منا وتكاليف الثالثة مبلغ زهيد جدا.

والآن فالذين يقومون على أمر الجثث- وهم صناع ورثوا مهارتهم عن جدودهم- يعرضون على أهل المتوفى قائمة بتكاليف كل مرتبة من مراتب الدفن، ويسألونهم عن الطريقة التي يريدون أن يهيئوا الجثة عليها، وبعد أن يتفقوا على جميع التفاصيل، ويتسلموا الجثة يعهدون بها إلى طائفة اختصت بهذا الأمر وفق التقاليد المرعية، فيضع من يقال له «الكاتب» الجثة أولا على الأرض، ويحدد على العطف الأيسر المقدار الواجب شجه، وبعد ذلك يأخذ من يسمونه (الجراح) حجرا حبشيا ويشج اللحم طبقا للأصول المرعية، ثم يولى الأدبار في التو مسرعا، فيقتفى الحاضرون أثره ويقذفونه بالأحجار ويلعنونه كأنهم يلصقون الجرم به، فقد كانوا يعتقدون أن اللعنة تحل بكل من يحمل بالقوة على جثة واحد من أفراد قومه إما بجرحها أو على العموم بإدخال أي عطب عليها.

أما الذين يسمونهم «المحنطين» فهم أهل لكل تعظيم وتقدير، ويختلطون بالكهنة، ويباح لهم بصفتهم مُطهرين الدخول في المعابد، وعندما يجتمعون لتجهيز الجثة التي سبق شجها، يدخل أحدهم يده في الشج إلى الجوف ويخرج كل ما فيه ما عدا الكليتين والقلب، بينما ينظف آخر الأحشاء واحدة فواحدة بغسلها بخمر البلح ومحلول التوابل، وبالجملة فكل الجسم يجهز أولا بزيت الأرز وبعض

المستحضرات الأخرى مدة تزيد على ثلاثين يوماً، ثم يجهز بالمر والقرفة ومواد من خاصتها أن تحفظ الجثة وقتاً طويلاً، وتضفى عليها النضارة أيضاً، وعندما يتم تجهيز الجثة يسلمونها إلى أهل المتوفى، وقد أبقوا على كل عضو من أعضاء الجسم حتى إن الأهداب والحواجب تظل كما كانت ولا تتغير هيئة الجسم مطلقاً، بل يمكن التعرف إلى ملامح شكله، ولذلك يحتفظ كثير من المصريين بجثت أجدادهم في غرف فخمة، فينظرون وجها لوجه إلى أسلافهم الذين قضوا نحبتهم قبل أن يولدوا هم أنفسهم بأجيال عديدة، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه، وقسمات وجهه يستشعرون إحساساً غريباً كما لو كانوا قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم.

٩٧ وعندما تجهز الجثة للدفن يخطر أهل الميت القضاة وأقرباء المتوفى وأصدقاءه أيضاً بيوم الجنائز، ويعلنون للملأ أنه - وهنا يذكرون اسم المتوفى - على وشك عبور البحيرة، ثم يجتمع اثنان وأربعون من القضاة ويأخذون مجلسهم في بناء نصف دائري في الجانب البعيد من البحيرة، ويطلق في الماء القارب «بارس»^(١) الذي أعده من قبل الذين يضطلعون بهذه الأمور، ويكون القارب تحت إمرة الملاح الذي يسميه المصريون في لغتهم خارون^(٢)، ولذلك يدعى المصريون أن أورفيوس أبحر إلى مصر في الزمن القديم، وشاهد هذه السنة فزور الأسطورة الدائرة حول العالم السفلي، ناقلاً بعضها مما شاهد ومختلقاً البعض الآخر من ذات نفسه.

(١) الكلمة المصرية قديمة بمعنى قارب أو زورق وقد دخلت في اللغة اليونانية

(٢) هذه هي التسمية اليونانية، وقد أخذها الرومان ولم يكن «خارون» معروفاً لدى المصريين، وإنما يقابله في الأساطير المصرية «الرجل الذي ينظر إلى الوراء»

وسأحدث عن هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد، وعلى أى حال فبعد أن يطلق القارب فى البحيرة، ولكن قبل أن يوضع فوقها النعش الذى يضم رفات الميت، يخول القانون لمن شاء حق اتهام المتوفى، فإذا تقدم أحدُ بتهمة أثبت بها أن المتوفى كان يحيا حياة ضالة، أصدر القضاة حكمهم علانية فيحرم الميت حق الدفن المتواضع عليه، وإذا ظهر أن المدعى اتهم المتوفى بغير وجه حق، وقع المدعى تحت طائلة عقوبات كبيرة، وإذا لم يتقدم أحدُ بتهمة، أو إذا تقدم واحد بتهمة وثبت أنه متجن، ينتهى أهل الميت من حداهم، ويؤيّنون الميت، وهم على عكس اليونان، لا يذكرون شيئا عن مولد المتوفى، معتقدين أن المصريين كلهم سواء فى شرف المحتد، ولكنهم يذكرون تربيته وتعليمه منذ طفولته، ويثنون على تقواه وعدله وضبط نفسه وسائر فضائله عندما بلغ مبلغ الرجال، ثم يدعون آلهة العالم السفلى أن تحشره فى زمرة الأتقياء، أما الجمهور فيهلل مؤمنا ويشيد بعظمة المتوفى بصفته واحدا من أولئك الذين سيخلدون إلى الأبد فى العالم السفلى فى صحبة الأتقياء.

والذين يملكون مرافق خاصة يضعون الجثة فى مكانها المعين، أما الذين لا مرافق لهم فيبتنون سقيفة جديدة فى خاصة بيتهم ويضعون النعش فيها منتصبا مستندا إلى أمتن حيطانها، أما الذين حرموا مراسم الدفن إما لأن تهما قد ثبتت عليهم، أو لأن أجسامهم كانت رهينة ديون لم يؤدوها، فيدفنون فى خواص بيوتهم، ويحدث أحيانا أن يُصيب

أحفادهم ثروة، فيوفون بالتزامات موتاهم، ويبرؤونهم من التهم المحمولة عليهم، ويقىمون لهم جنازة فخمة.

وَأَقْدَسُ الْوَاجِبَاتِ الْمَرْعِيَةِ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ أَنْ يُرَوَّأُوا وَقَدْ أَوْلُوا آبَاءَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ مِنَ التَّقْدِيسِ بَعْدَ انْتِقَالِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا يُولُونَهُمْ وَهُمْ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَمِنْ عَادَاتِهِمْ أَنْ يَقْدَمُوا جِثَّتْ آبَائِهِمُ الرَّاحِلِينَ رَهْنَا لِدِينِ، وَيَلْحَقُ الْعَارَ الْأَكْبَرَ الَّذِينَ لَا يُوْفُونَ هَذَا الدِّينَ، فَيَحْرَمُونَ مَرَامِسَ الدَّفْنِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

ولنا أن نعجب بحق بالذين سنوا هذه التقاليد، ذلك بأنهم اجتهدوا أن يُشربوا الناس البر ونبل الأخلاق لا عن طريق صلوات الأحياء فحسب.. بل وبقدر ما وسعت طاقتهم عن طريق دفن الموتى وتجهيزهم، فالإيونانيون قد لجأوا إلى الخرافات الموضوعية والقصص المجرحة لتدعيم الاعتقاد بأن التقى سيلاقى ثوابه، والشقى عقابه، ومهما يكن من شيء، فإن هذه الأساطير، لم يكن لها من القوة ما يمكنها من صرف الناس إلى الحياة الفاضلة، بل بالعكس كانت موضوع سخرية الأشرار، وقوبلت بالزراية التامة، بينما المسألة عند المصريين لا تدخل في باب الخرافة، بل هي حقيقة سافرة أن الشقى يلاقى عقابه، والتقى ثوابه، وكلاهما يذكر يومياً بواجباته، وهكذا نحصل على أحسن وأفيد تقويم للأخلاق، وعندى أن أحسن القوانين ليست التي يصبح الناس بفضلها أغنياء جدا.. بل هي القوانين التي يصبحون بفضلها أنبل الناس أخلاقاً وأكثر المواطنين ولاءً.

٩٤ وينبغي أن نتحدث كذلك عن المشرعين المصريين الذين
 سنا هذه التقاليد المبتكرة الغربية، فيحكي أنه بعد أن توطدت الحياة
 في مصر في العصر القديم، وقد استقرت في رواية البعض في عصر
 الآلهة والأبطال، كان منيفيس^(١) أول من أقنع الشعب بالامتثال لقوانين
 مكتوبة، وقد كان في ذاته رجلا عظيما، وفي حياته أكثر من نشيد
 بذكرهم أريحية، فادعى أن هرمس أوحى إليه بهذه القوانين، لتكون
 مصدر نعم عظيمة، تماما كما كان الأمر عند اليونان فيما يقال، إذا
 ادعى مينوس في أقرطش وليكرجوس^(٢) بين الأسبرطيين أنهما قد تلقيا
 قوانينهم، أولهما تلقاها من زيوس، وثانيهما من أبوللو، ويؤثر أن هذا
 الضرب من الحيلة قد جاز على شعوب كثيرة غيرها وكان مصدر أنعم
 كثيرة للذين آمنوا، ويحكي أن زائراوستيس^(٣) ادعى بين الآريين أن
 الروح الخيرة حبته بالقوانين، وكذلك عزاها زالموكسيس zalmoxis
 عند الأقوام المسماة بالجتيين^(٤) Getar إلى الإهتهم المشتركة هيستيا
 Hdstia وعند اليهود عزاها موسى إلى الإله الذي يدعونه إياو، وهؤلاء،
 إما أنهم قدروا أن الفكرة التي يكون من شأنها أن تفيد جمهرة الناس،
 فكرة رائعة والإهية تماما، وإما أنهم رأوا أن الشعب يكون أكثر خضوعا

(١) هو فيما يظهر مينا الذي ورد ذكره في الفصل ٤٣، ٤٥

(٢) هو مشروع إسبرطة الأكبر، وقد أعاد بتشريعاته توزيع الثروة في إسبرطة ووضع لها
 نظامها الحربى والمدنى، والمرجح أن ذلك كان حوالى سنة ٨٢٥ ق.م.

(٣) زرادشت

(٤) يسكنون جنوب نهر الطونة، وظهر بينهم زالموكسيس وبشرهم بخلود الروح

للقوانين لو اتجه ببصره صوب عظمة وقوة الذين يُعزى إليهم وضع هذه القوانين، ويقول المصريون إن ثاني المشرعين هو ساسوخيس^(١) sasychis وهو رجل يمتاز برجاحة العقل، وقد أضاف إلى القوانين القائمة قوانين جديدة، ونظم شعائر الآلهة بحرص فائق، ووضع علم الهندسة، وعلم أهل البلاد مراقبة النجوم، ورصدها. وثالث مشرعيهم فيما يقولون سيسوسيس^(٢) sesoosis ولم يكتف بالقيام بأبهر الأعمال الحربية المصرية، بل سنّ تشريع الطبقة المحاربة، ووضع كل ما يتبع ذلك من أصول الحملات الحربية، ورابع المشرعين هو الملك بوخوريس^(٣) وكان عاقلا امتاز بدهائه، فنظم جمع شئون الملك وشرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة، وقد كان حكيما في قضائه إلى حد أن كثيرا من أحكامه مازال لفرط سداه ماثورا إلى يومنا هذا، ويضيفون إلى ذلك أنه كان أضعف الناس بنيةً وأجشع الملوك قاطبة نفسا.

٩٥ وبعد بوخوريس صرف الملك أمازيس همته فيما يقال إلى القانون، فهو الذى نظم فيما يزعمون أصول حكومة الأقاليم، وقواعد الإدارة المصرية عامة، والمأثور أنه كان بالغ الحكمة رحيم الطبع عادلا. وقد اجتباهاه المصريون للملك من أجل هذه الصفات برغم أنه لم ينحدر من أصل ملكي، ويحكى أن الإليائيين وكانوا شديدي الاهتمام بالمباريات الأولمبية، أرسلوا وفدا يسأله كيف يمكن أن تكون المباريات

(١) يرى البعض أنه الفرعون شيب-سيس-كاف من الأسرة الرابعة

(٢) مذكور في الفصل ٤٥، ٦٥، ٧٩

(٣) راجع الفصل ٥٣ وما بعده

على غاية من النزاهة؟ فأجاب «إذا لم يشترك في المباريات أحد من الإليائيين»^(١).

وبالرغم من أن بوليقرطيس^(٢) Polycrates طاغية ساموس كان قد عقد معه معاهدة صداقة، إلا إنه حينما أخذ يسوم المواطنين والأجانب الذين نزلوا بساموس العسف، أرسل إليه أمازيس أولا فيما يقال وفدا يدعوه إلى الترفق، ولما لم يعره بوليقرطيس التفاتا، كتب إليه رسالة يقطع فيها ما بينهما من صلات الصداقة والمودة، ذلك أنه لم يُرد لنفسه السوء وشيكا. فقد كان يعلم علم اليقين أن المصيبة لا تلبث أن تحيق بمن يقيم مثل هذا الحكم الاستبدادي. ويقال إنه نال إعجاب اليونان لنبله ولأن ما أنذر به بوليقرطيس تحقق عاجلا، ويقال إن دارا أبا إجزر كسيس كان سادس من تفقهوا في القوانين المصرية، فقد أسخطه ما استهدفت له المعابد المصرية على يد سلفه الملك قبيز من عبث، وكان شديد الرغبة في أن يحيا حياة فاضلة تقيية، فصحب الكهنة المصريين أنفسهم وأخذ عنهم علم الكلام والتاريخ المثبت في الكتب المقدسة، ولما تعلمنها سمو نفس الملوك القدماء، وبرهم برعيتهم، احتذى حذوهم، وهكذا أصاب من التكريم قدرا عظيما إلى حد أنه الوحيد بين الملوك جميعا الذي أطلق عليه المصريون لقب إله وهو في قيد الحياة، ولما قضى نحبه، كان نصيبه من التكريم مثل نصيب الملوك الأقدمين الذين حكموا طبقا لنصوص القانون.

(١) ذكر هيردوت، ٢، ١٦٠ هذه القصة بالتفصيل ولكنه عزاها إلى الملك بساميس

(٢) من أشد طغاة اليونان بطشا، وكان من رعاة الأدب والعلم، وقتل غيلة سنة ٥٢٢ ق.م

هؤلاء الرجال إذن امتلكوا فيما يقال في وضع التشريع العام الذي اكتسب صيتا ذائعا بين سائر الشعوب، ويقال إن كثيرا من هذه القوانين التي كانت صالحة في رأى الكافة قد تغيّرت عندما انتصر المقدونيون وقضوا على الحكومة الملكية الوطنية إلى الأبد.

٩٦ والآن.. بعد أن فصلنا هذه المسائل، يجب أن نتحدث عن أولئك اليونانيين الذين زاروا مصر في العصور القديمة ليدرسوا ما فيها من نظم وعلوم، يقول الكهنة المصريون - معتمدين في ذلك على ما ورد في الكتب المقدسة - إن أورفيوس^(١) وموسى وميلامبوس Melampus^(٢) وديدالوس^(٣) والشاعر هوميروس وليكرجوس الإسبرطي وصولون الآثيني، والفيلسوف أفلاطون زاروا مصر في العصر القديم، ويزعمون أن العالم الرياضي يودكوس^(٤) Eudoxus وديموقريطس^(٥) الأبدري وأينوبيدس^(٦) Oenopides الحيوى قد جاءوا إليها أيضا والأدلة التي يسوقونها على صحة هذه الدعاوى كلها هي التماثيل التي أقيمت لبعض هؤلاء اليونانيين، والبقاع والمنشآت التي سميت بأسماء البعض الآخر^(٧)، والعلوم التي صرف كل منهم إليها همته،

(١) شخصية خرافية، كان اليونانيون يعتقدون أنه أشهر الشعراء قبل هوميروس

(٢) كان اليونانيون يعتقدون أنه أول من أدخل عبادة ديونيسوس عندهم

(٣) شخصية خرافية، اعتقد اليونانيون أنه أدخل فنون النحت والعمارة في أثينا وكريت

(٤) جغرافي ورياضي من تلاميذ أفلاطون، والشواهد كثيرة على زيارته لمصر

(٥) راجع فصل ٣٩

(٦) راجع فصل ٤١

(٧) جاء في إسترابون ١٧، ١ أن البيت الذي نزل فيه أفلاطون ويودكوس كان قائما في هيلوبوليس

زاعمين أن كل ما نالوا الإعجاب من أجله عند اليونانيين كان منقولاً من مصر، ويقولون إن أورفيوس نقل من مصر أكثر الطقوس الباطنية والشعائر السرية المتعلقة بسياحته، وأساطير العالم السفلي، ذلك بأن شعائر أوزيريس هي بعينها شعائر ديونيسوس، كما أن شعائر إيزيس قريبة الشبه جداً بشعائر ديميتير مع اختلاف في الأسماء وحدها، فعقاب الأشرار في العالم السفلي، وجنات الأتقياء وما ينسجه الخيال من ترهات يؤمن بها الكثيرون، مستقاة من الشعائر الجنائزية في مصر، ذلك أن رائد الأرواح هرمس يسوق - طبقاً للطقوس المصرية القديمة - جسم إبيس إلى مكان ما ويسلمه للذي يلبس قناع كريبروس Cerberus وثبتت أورفيوس هذا التقليد بين اليونانيين وتابعه هوميروس وقال في شعره:

«وابتعت هرمس الكلينى أرواح الخطاب وقد قبض بيديه على عصاه السحرية» ثم عاد بعد أبيات قليلة فقال^(١)

قد عبروا أمواه المحيط

وصخره الضوء اللماع

جاوزوا أبواب الشمس ومنطقة الأحلام

وها قد بلغوا بغتة رياض الشقائق

حيث تسكن الأرواح وأشباح الموتى

(١) الأوديسية ١٠٢٤ - ١١ و ٢ - ١٤

وهكذا يسمى الشاعر النهر، «المحيط»^(١) لأن المصريين يطلقون على النيل هذا الاسم في لغتهم، أما أبواب الشمس (هليوس) فهي أبواب مدينة هليوبوليس، والرياض- مساكن الموتى الخرافية- هي المروج القريبة من البحيرة التي يقال لها أخيروسيا بالقرب من منف، وتكتنفها المروج البالغة الجمال والمستنقعات ونبات البردى والغاب، ومن هنا قيل إن مساكن الراحلين تقع في هذه البقاع لأن أكثر مدافن المصريين وأعظمها قائم هناك، فينقل الموتى عبر النهر وبحيرة أخيروسيا وتلحد جثثهم هناك حيث توجد مقابرها.

وتتفق أساطير اليونان الأخرى حول العالم السفلي مع التقاليد التي لا تزال قائمة في مصر، ذلك بأن السفينة التي تحمل جثث الموتى تسمى بارس، ويُنقذُ الجعل للسفان الذي يدعى في لغة أهل البلاد خارون، ويقولون إنه يقع بالقرب من هذه المنطقة معبد هيكاتس إلهة الظلام ومنافذ كوكيتوس^(٢)، وليتي^(٣) وتتخللها قضبان من البرنز، وهناك أيضا بوابات أخرى «للحق» بالقرب منها يقوم تمثال بلا رأس «للعادلة».

ولا يزال كثيرٌ غير هذه من الخرافات سائدا في مصر، وما انفكت الأسماء فيها باقية، والطقوس لا تزال معمولا بها، ففي مدينة أكانثوس فيها وراء النهر في الناحية اللوية، وتبعد مائة وعشرين ستادا عن منف، توجد جرة مثقوبة يحمل إليها الماء من النيل كل يوم

(١) الواقع أن هوميروس لا يعرف النيل إلا باسم إيجيتوس

(٢) نهر الأحزان المتصل بالعالم السفلي.

(٣) نهر النسيان المتصل بالعالم السفلي

ثلثمائة وستين كاهنا^(١)، وبالقرب من هذه الناحية نرى خرافة أكنوس^(٢) لا تزال تقام بالتمام في أحد الأعياد، حيث يضفر أحدهم حبلا طويلا، بينما يحل كثيرون من ورائهما ضفر، ويقولون إن ميلامبوس نقل من مصر الطقوس التي تواضع اليونان على إقامتها لديونيوسوس، والخرافات الدائرة حول كرونوس، وقصص الحروب ضد المردة، وبالجملة حكاية كل ما عاناه الآلهة، ويدعى المصريون أن ديدالوس قلد دروب التيه المصرى الذى لا يزال باقيا إلى وقتنا الحاضر، وقد ابتناه على قول البعض منديس وعلى قول آخر ماروس^(٣)، وقد تولى الحكم قبل الملك ميونس Minos بسنين عديدة، ونسب التماثيل المصرية القديمة هي نفس نسب التماثيل التي أقامها ديدالوس عند اليونانيين، ويقال إن البوابة الخارجية في معبد هيفايستوس في منف، وهي جميلة جدا، أنشأها ديدالوس، وأعجب به المصريون وأقاموا له تمثالا خشبيا في المعبد المذكور كان من صنع يديه هو نفسه، وأخيرا فقد اكتسبته عبقريته شهرة عظيمة، وبعد أن قام باكتشافات كثيرة حظى بالتقديس الإلهي، ويوجد إلى الآن معبد لديدالوس في إحدى الجزائر بالقرب من منف ويقده فيها الشعب.

(١) إشارة إلى بنات دناؤس الخمسين اللائي كتب عليهن بعد الموت أن يملأن جرات لا قعر لها.

(٢) في الأساطير اليونانية أن أكنوس في العالم السفلى كتب عليه أن يضفر حبلا ووراءه

حمار يأكل ما يضفر

(٣) راجع فصل ٦١

ويُقدّم المصريون أدلةً كثيرةً على زيارة هوميروس لمصر وأخصها الدواء الذي أعطته هيلينة لتيليمّا خوس في بيت مينيلّوس، وما جلب له من نسيان الشرور التي أصابته، وهذا هو دواء النينثيس^(١) Nepenthes الذي يقول الشاعر إن هيلينة قد أخذته من بوليدامنه زوج ثون في مدينة طيبة المصرية، ومن الجلي أنه فحصه جيدا، وهم يدعون أن النساء في تلك المدينة يستعملون إلى الآن هذا الدواء الناجع. ويقولون إنه اكتشف منذ الزمن القديم دواء لشفاء الغيظ والألم بين نساء ديوسبوليس وحدهن، ومدينة ديوسبوليس هي نفسها مدينة طيبة، وهكذا ينعت الأهالي أفروديت بلقب «الذهبية» في الأساطير القديمة، ويوجد حول المدينة التي يسمونها مومفيس سهل يقال له (أفروديت الذهبية) ويقال إن هوميروس نقل من مصر أسطورة معاشرّة زيوس لهيرا ورحلته إلى الحبشة، وفي كل عام ينقل المصريون مقصورة زيوس عبر النهر إلى لوبيا، وبعد بضعة أيام يرجعونها بالتالي كما لو أن الإله قد قفل راجعا من الحبشة، أما عن معاشرّة هذين الإلهين فإن مقصورتيهما تنقلان في الأعياد إلى تل قد فرشاه الكهنة بجميع أنواع الزهور^(٢).

- (١) معناها مسكن الآلام، والإشارة إلى قول هوميروس في الأديسية ٤، ٢٢٠، ومن ثم سكبت في الخمر الذي كانوا يشربون منه دواء مسكنا للآلام، ومنسيا لجميع الأحزان
- (٢) يشير ديودور إلى قول هوميروس في الإلياذة ٢، ٣٤٦ - ٨ «أما ابن كرونوس فضم خليلته بين نراعيه، وأخرجت الأرض الطيبة تحت أقدامها حشايش ناضرة غضة وبشنين نديا، وزعفران وعيسلان رخصا سميكاً».

❦
 ولقد اقتبس ليكرجوس وأفلاطون وصولون كثيرا من السنن المصرية في شرائعهم وتعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب، وحلول الروح في أنواع الحيوانات المختلفة، ويعتقد المصريون أن ديموقريطس قضى بينهم خمس سنوات تعلم فيها كثيرا من مسائل علم الهيئة، وتعلم أونوبديس فيما تعلم بملازمة الكهنة وعلماء الهيئة أن الشمس تدور في شكل إهليلجي في اتجاه مضاد لسائر الكواكب، وكذلك بعد أن درس يودكسوس عند المصريين علم الفلك نقل كثيرا من العلوم المفيدة إلى اليونانيين وأصاب عندهم شهرة عظيمة.

ولقد زار مصر أشهر المثالين القدماء تليكليس وثيودوروس ولدا رويكوس اللذان نحتا لأهل ساموس التمثال الخشبي لأبوللو البيثيني، وشاع القول بأنتليكليس أنجز نصف التمثال في ساموس، في حين أنجز أخوه ثيودوروس النصف الثاني في إفسوس ولما وضع النصفان بجانب بعضهما التأما إلى حد أنه كان يبدو كأن الأثر الفني كله كان من صنع رجل واحد، وهذا الأسلوب في الصناعة لم يصطنعه اليونان أبدا، في حين أن المصريين عاكفون عليه على وجه التخصص، ذلك أن المصريين لا يحكمون على تناسب التمثال بما يقع تحت أعينهم من منظور كما هو الحال عند اليونانيين.. بل إنهم بعد أن يصفقوا الحجر، ويقسموه ويبدأوا العمل فيه، حينئذ يأخذون النسب والأبعاد صغيرها وكبيرها على حدٍ سواء، وهم يقسمون هيكل الجسم كله إلى واحدٍ وعشرين قسما وربع قسم، وبذلك يعطون كل نسب المنظور، وهكذا عندما يتفق الصناع

فيما بينهم على حجم الأثر الفني، يعملون كل على حده، ويهيئون حجم التمثال بانسجام دقيق إلى حد أن تفرّد أسلوب صناعاتهم كان مثار عجب عظيم، وهكذا نحت تمثال ساموس طبقاً لأصول الصناعة المصرية، فقد شطر التمثال نصفين من قمة الرأس إلى العورة، وهذان النصفان متماثلان من جميع الوجوه، ويقال إن هذا التمثال يشبه في معظم الوجوه التماثيل المصرية وقد امتدت يداه وانفجرت رجلاه.

هذه إذن عجالة كافية في تاريخ مصر وما هو جدير بالذكر فيها وستبعتها طبقاً للخطة التي وضعناها في مستهل الكتاب بما تلا ذلك من حوادث وأخبار مبتدئين بما حدث للآشوريين في آسيا.

ملحق ١ المقاييس

القدم = ٠.٣٠٨٨ من المتر أو ١٢.١٦ من البوصة
 ذراع^(١) = $١ \frac{1}{4}$ قدم = ٠.٤٦٣٢ من المتر
 باع = ٦ أقدام = ١.٨٥٣ متراً
 بليثرون = ١٠٠ قدم = ٣٠.٨٨ متراً
 ستاد = ٦٠٠ قدم = ١٨٥.٣ متراً
 سخينوس = ٦٠ ستاد = ١١.١٢ كيلومتراً
 رحلة يوم برأ = ١٥٠ ستاد = ٢٨ كيلو متر تقريباً
 رحلة يوم بحرأ = ٧٠٠ ستاد = ١٣٠ كيلو متر تقريباً
 رحلة ليلة بحرأ = ٦٠٠ ستاد^(٢) = ١١١ كيلو متر تقريباً

النقد

المن = ١٠٠ دراهمة
 طالنط = ٦٠ مناً = ٢٤٠ جنيهاً تقريباً
 وهذه كانت تستعمل بهذه النسب كموازين، والمن (وزن) = $\frac{1}{4}$ رطلا.
 وكان مستعملاً كمكيال.

(١) الذراع المصرية تساوى ٠.٥٢٥ من المتر وهى تساوى بالنسبة إلى الذراع الأولمبية ١٥ إلى ١٧ وهذه هى الذراع التى كان المصريون يستعملونها فى مساحة الأرض وقياس ارتفاع النيل.
 (٢) وهذا يساوى خمس عقد بحرية تقريباً. والستاد فى البحر يساوى نصف دقيقة عرض أو $\frac{1}{100}$ من درجة العرض.

ملحق ٢

المدن المصرية التي وردت في الكتاب

الرقم يشير إلى الفصل

اسم المدينة الآن	اسم المدينة
الإسكندرية	أرسنوى ٣٣
واحة سيوه	أكانثوس ٩٦
قرية بالقرب من العثمانية	الإسكندرية ٥٠
جزيرة الفنيتين	انطايوس ٢١
مصر القديمة	إلفنتين ٨
مرسى مطروح	بايبلون ٥٦
تل بسطة	برايتونيوم ٣١
أبو سيريانا	بوباتيس ٢٧
تل الفرما	بوسيريس ٨٥
؟	بياوزيوم ٥٧
أخميم	تونيس ١٩
الأقصر	خمو ١٨
العريش	ديوسبوليس ١٥ ، ٩٧
صالحجر	رينوكولورا ٦٠
طره	سايس ٢٨
الأقصر	طرويا ٥٦
جزيرة فيلاى (ببلاق)	طيبة ١٥ ، ٢٣ ، ٤٥ - ٥٠ ، ٩٧
	فيلاى ٢٢

مدينة الفيوم	كروكودياوبوكيس ٨٩
كوم المقدام	ليوننتوبوليس ٨٤
على الشاطئ الجنوبي من بحيرة مريوط (أطلال)	ماريه ٦٨
ميت رهينه	منفيس ٩٧ . ٥٧ . ٥١ . ٥٠
أبو بيلو	مومفيس ٩٧ . ٦٦
تل الربع	مينديس ٨٤
دلاص	نيلوبوليس ٨٥
المطرية	هليوبوليس ٨٤ . ٧٤ . ٥٩ . ٥٧

ملحق ٣

أسماء الآلهة

مايقابلها في المصرية القديمة حورس (في ادفق)	أسماء الآلهة الواردة في الكتاب أيوللو ١٣ . ١٧ . ١٨ . ٢٥ . ٩٨
شو أو تفنت	آثينا ١٦ . ١٢
هاتور	أفروديتي ٩٧ . ١٧ . ١٣
أنوبيس	أنوبيس ٨٧ . ٨
أوزيريس	أوزيريس ٨٨ . ٨٧ . ٨٥ . ٢٧-١٤ . ١١
إيزيس	إيزيس ٨٨ . ٨٧ . ٤٤ . ٢٧-٢٢ . ١٧-١١
نخبت	أيليثويا ١٢
من	بان ١٨
من	بريايوس ٨٨

أوزيريس	بلوتو ٢٥
جب	جى ميتير (الأرض) ١٢
حورس	حورس ٢١ ، ٢٥ ، ٤٤
إيزيس	ديميتير ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٩٦
أوزيريس	ديونيسوس ١١ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٩٦
؟	ربا ١٣
أمون - رع	زيوس ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٩٧
سيرابيس	سيرابيس ٢٥
إيزيس	سيليني (القمر)
ست	طيفون ١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٨٨
جب	كرونوس ١٣ ، ٢٧
أيوات	مقيدون ١٨ ، ٢٠
خنسو	هرقل ٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤
تحوت	هرمس ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٤٣ ، ٩٤ ، ٩٦
رع	هليوس (الشمس) ١٣
إيزيس	هيرا ١٣ ، ٩٧
آتوم - رع (فى هليوبوليس)	هيفايستوس ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٥٣ ، ٥٧
بتاح (فى منفيس)	

<http://al-maktabeh.com>

الفهرس الشامل

الكايوس ٢٤	إرخثيوس ٢٩	أبريس ٦٨
ألكمينى ٢٤	أرخميديس ٣٤	أبواب الشمس ٩٦
اليمن ١٥	أرسنوى ٣٣	أبوللو ١٣، ١٧، ١٨
إليوسيس ٢٩	أرميوس ٦٤	٩٨، ٣٥
مازيس ٥٩، ٦٧، ٦٨	أريوباجوس ٧٥	أبوللودوروس ٥
٩٥، ٦٩	آريون ٩٤	أبيس ٢١، ٨٤، ٨٥
أموزيس ٦٤	أستابوس (نهر) ٣٧	أثيرتيس ٥٣
آمون ١٣، ١٥، ٤٦	إسراطه ٥	أتিকা ٢٠
إناروس ٦٤	آستى ٢٨	أثينا ٢٨
أناكساجوراس ٧، ٣٨	أفروديتى ١٣، ١٧، ٩٧	أتينة (الإلهة) ١٢، ١٦
٣٩	أفلاطون ٩٦، ٩٨	أجاتار خيديس ٤١
أنطايوس (مارد) ٢١	أكتيزانيس ٦٠	أجزر كسيس ٥٨
أنطابوس (حاكم) ١٧	أكنوس ٩٧	أجيريوم ٤
أنوبيس ١٨، ٨٧	الإسكندر الأكبر ٣، ٤، ٢٦	أحمس ٦٨
أورفيوس ١١، ١٢، ٢٣	٨٤، ٥٥، ٥٠	أخوريوس ٥٠
٩٦، ٩٢، ٦٩	الإسكندرية ٥٠	أخيروسيا ٩٦
أوزيريس ١١، ١٤، ٢٧	البحر الأحمر ٣٣، ٥٥	أخيلؤس (نهر) ٣٩
٨٨، ٨٧، ٨٥	الغال ٤	أرجوس ٢٤، ٢٨

بولجيون ٣٧	برسيبوليس ٤٦	أوزيماندياس ٤٧ ، ٤٩
بوليقراطيس ٩٥	برسيوس ٢٤	أوقياني ١٢ ، ١٩
بوليدامنه ٩٧	برقه ٦٨	أوقيانوس ١٢ ، ٩٦
بوخوريوس ٤٥ ، ٦٥	بروتيبوس ٦٢	أوينوبيديس ٤١ ، ٩٦ ، ٩٨
٧٩ ، ٩٤	بروميثيوس ١٩	إياو ٩٤
بيتيس ٢٨	بريايوس ٨٨	أيتوس (النس) ١٩
بيلوزيوم ٥٧	بسماتيك ٣٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨	إيجبتوس (النيل) ١٩
بيلوس ٢٨	بظلموس (قناة) ٣٣	إيجبتوس (ملك) ٥١
ترووجوديتيس ٣٠ ، ٣٧	بظلموس (١١) ٤٤	إيستر (نهر) ٨٩
تريبتيو ليموس ١٨	بظلموس (١) ٣١ ، ٤٦	إيزيس ١١ - ١٧ ، ٢٢ -
تلكليس ٩٨	٨٤	٢٧ ، ٤٤ ، ٨٧ ، ٨٨
تلماخوس ٩٧	بظلموس (٢) ٣٣ ، ٣٧	أيليثويا ١٢
تمساح ٣٥	بلاد العرب ١٩ ، ٥٣	إيو ٢٤
تنائيس (الدون) ٥٥	بلوتو ٢٥	أيونيه ٦٦
تنيفاخثوس ٤٥	بواسطيس ٢٧	بابيلون (في مصر) ٥٦
ثونيس ١٩	يوزيدون ٢٨	بابيلون (بابل) ٢٨ ، ٨١
ثوكيديديس ٣٧	بوسيريس (مدينة) ٨٥	باراثرا ٣٠
ثيوبومبوس ٣٧	بوسيريس (حاكم) ١٧	بان ١٨ ، ٨٨
ثيودوروس ٩٨	بوسيريس (ملك) ٤٥ ، ٤٥	باكتريون ٤٧
جلوكوبيس ١٢	٦٧ ، ٨٨	برايتوريوم ٣١

سیرابیس ۲۵	رمسیس (۳) ۶۲، ۶۳	حبشة ۱۹، ۳۳، ۳۴
سیریوس (أوزیریس) ۱۱	رمفیس ۶۲، ۶۳	۵۵، ۳۸
سیریوس (الشعری الیغانیة) ۱۹	رودوبیس ۶۴	حرب طرواده ۴، ۵، ۲۴
سیوسیسی ۵۳ - ۵۹، ۹۴	روما ۴	حورس ۲۱، ۲۵، ۴۴
سیکلادیس ۳۶، ۵۵	رویوس ۶۸	خارون ۹۲، ۹۶
صولون ۶۹، ۷۷، ۷۹	ربا ۱۳	خفرع ۶۴
۹۸، ۹۶	رینو کولورا ۶۰	خمیس ۶۳
طالیس ۳۸	زالموکسیس ۹۴	خمو ۱۸
طرواده ۵۶، ۶۲	زرادشت ۹۴	دارا ۳۰، ۵۸، ۹۵
طیبة (إقليم) ۱۰، ۱۵، ۱۸	زیثوس ۳۳	دلتا ۳۴
طیبة (مدینة) ۱۵، ۲۳	زیوس ۱۲، ۱۳، ۲۳، ۹۷	دناؤس ۲۸
۷۵، ۴۵	ساتیر ۱۸، ۸۸	دیدالوس ۶۱، ۹۶، ۹۷
طیقون ۱۳، ۲۱، ۲۲، ۸۸	ساسیخیس ۹۴	دیموقریطس ۳۹، ۹۶، ۹۸
فاروس ۳۱	ساموس ۹۵	دیمیتیر ۱۲، ۱۳، ۱۴
فلسطین ۳۰، ۳۱	سایس ۲۸	۹۶، ۲۹
فیثاغوراس ۶۹، ۹۶، ۹۸	سباکو ۶۵	دیوکالیون ۱۰
فیلاى ۲۲	سربونیس ۳۰	دیونیسوس ۱۱، ۱۵
فیلب ۳	سمیرامیس ۵۶	۲۲، ۲۳، ۲۷
قادموس (مصرى) ۲۳	سمیلی ۲۳	۹۶
قادموس (یونانى) ۳۷	سوسا ۴۶	رمسیس (۲) ۴۷، ۴۹

قارية ٦٦	ليثي ٩٦	ممفيس ٢٢ ، ٣٦ ، ٥٠
قمبيز ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٦	ليكرجوس (ملك) ٢٠	٦٧ ، ٧٥ ، ٨٤
٤٩ ، ٦٨ ، ٩٥	ليكرجوس (مشرع) ٩٤	٩٧
قورينه ٦٨	٩٨ ، ٩٦	موسى ٩٤ ، ٩٦
قوازيق ٤١	ليونتوبوليس ٨٤	مومفيس ٦٦ ، ٩٧
قيصر (بوليوس) ٤	ناتريس ٢٤	مويريس (ملك) ٥١ ، ٥٢
كتيزياس ٥٦	مارد ٢٥ ، ٩٧	مويريس (قارون) ٥١ -
كروكوديلوبوليس ٨٩	ماروس ٦١ ، ٩٧	٥٢ ، ٦٦ ، ٨٤
كرونوس ٢٧ ، ١٣	مارون ١٨ ، ٢٠	٨٥
كربروس ٩٦	ماريه ٦٨	مياندر ٣٩
كلدانيون ٢٧ ، ٨١	مروى (مدينة) ٣٣	مينا ٤٣ ، ٤٥ ، ٨٩
كولخيون ٢٨ ، ٥٥	مروى (جزيرة) ٣٣ ، ٣٧	مينثيوس ٢٨
كوكيتس ٥٦	مروى (أم قمبيس) ٣٣	مينلاوس ٥٦
كيتيس ٦٢	مقياس النيل ٣٦	ميلامبوس ٩٦ ، ٩٧
كيروكيس ٢٩	مقيدون ١٨ ، ٢٠	مينوس ٦١ ، ٩٤
كيفيسوس ٣٩	منديس (مدينة) ٨٤	مينوطور ٦١
كيكروبس ٢٨	منديس (ملك) ٦١ ، ٩٧	نخاو ٢٣
كيكي ٣٣	منقرع ٦٤	نسامونيون ٣٧
ليبيا (الصحراء) ٣٧ ، ٥٣	منيفس ٩٤	نفس ٣٥
ليبيا ٢٨	منيفيس ٢١ ، ٨٤ ، ٨٥	نيسا (في اليمن) ١٥ ، ٢٧

هیکاتیوس ۴۶	هلیوس (ملك) ۲۶ . ۱۳	نیسا (فی الهند) ۱۹
هیلانیکوس ۳۷	هند ۴۱ ، ۱۹	نیسیایوس ۲۷
هیلینه ۹۷	هومیروس ۱ . ۱۱ ، ۱۲	نیل ۴۳ - ۳۲ ، ۱۹
یافا ۳۱	۱۹ ، ۴۵ ، ۶۹	نیلوبولیس ۸۵
یهود ۹۴ ، ۵۵	۹۷ ، ۹۶	نیلیوس ۶۳
بویاتریدای ۲۸	هیداستیس ۴۱	هادیس ۹۲ ، ۲
یودکسوس ۹۸ ، ۹۶	هیرا ۹۷ ، ۱۳	هرقل ۲۴ ، ۲۱ ، ۱۹ ، ۱۷ ، ۲
یوریبیدیس ۳۹ ، ۳۸ ، ۷	هیروروت ۶۹ ، ۳۸ ، ۳۷	هرمس ۱۳ ، ۱۵ ، ۱۷
یومولبوس ۱۱	هیرودیس ۴	۹۶ ، ۹۴ ، ۴۳
یومولبیدای ۲۹	هیفایستوس ۱۳ ، ۱۲	هستیا ۹۴ ، ۱۳
	۵۷ ، ۵۳ ، ۲۲	هلیوبولیس ۷۵ ، ۵۹ ، ۵۷
	هیکانیس ۹۶	۹۶

فهرس الكتاب^(١)

مقدمة	
فاتحة الكتاب	١
فائدة علم التاريخ	٢ - ٤
منهج التقويم عند ديودور	٥
الإنسان الأول والحياة البدائية	٦ - ٩
تاريخ مصر	١٠
إيزيس وأوزيريس	١١
الآلهه في مصر وأنسابها	١٢ - ١٣
إيزيس وأوزوريس	١٤ - ٢٧
الجاليات المصرية	٢٨
إرخثيوس	٢٩
وصف مصر	٣٠ - ٣١
وصف النيل	٣٢ - ٣٧
أسباب الفيضان	٣٨ - ٤١
مختصر الجزئين الأول والثاني	٤٢
الحياة في مصر القديمة	٤٣
طبقات الملوك المصريين	٤٤ - ٤٥
طيبة	٤٦
أوزيماندياس	٤٧ - ٤٩

(١) الرقم يشير إلى الفصل.

أوخوريس	٥٢ - ٥٠
سيسوسيس	٥٩ - ٥٣
أمازيس	٦٠
كيتيس	٦٢
نيلوس	٦٣
خفرع	٦٤
منقرع	٦٥
بسماتيك	٦٧ - ٦٦
أبريس	٦٨
النظم المصرية	٧٤ - ٦٩
القوانين المصرية	٨٠ - ٧٥
العلوم المصرية	٨٢ - ٨١
الحيوانات المقدسة في مصر	٩٣ - ٨٣
المشرعون المصريون	٩٥ - ٩٤
أثر الحضارة المصرية في اليونان	٩٨ - ٩٦

ص

ملحق ١ المقاييس	١٦٤
٢ أسماء المدن	١٦٥
٣ أسماء الآلهة	١٦٦
الفهرس الشامل	١٦٩
فهرس الكتاب	١٧٥

٢٠١٣ / ٤٣٦٥	رقم الإيداع
ISBN 978-977-02-7765-2	الترقيم الدولي

١ / ٢٠١٣ / ٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)